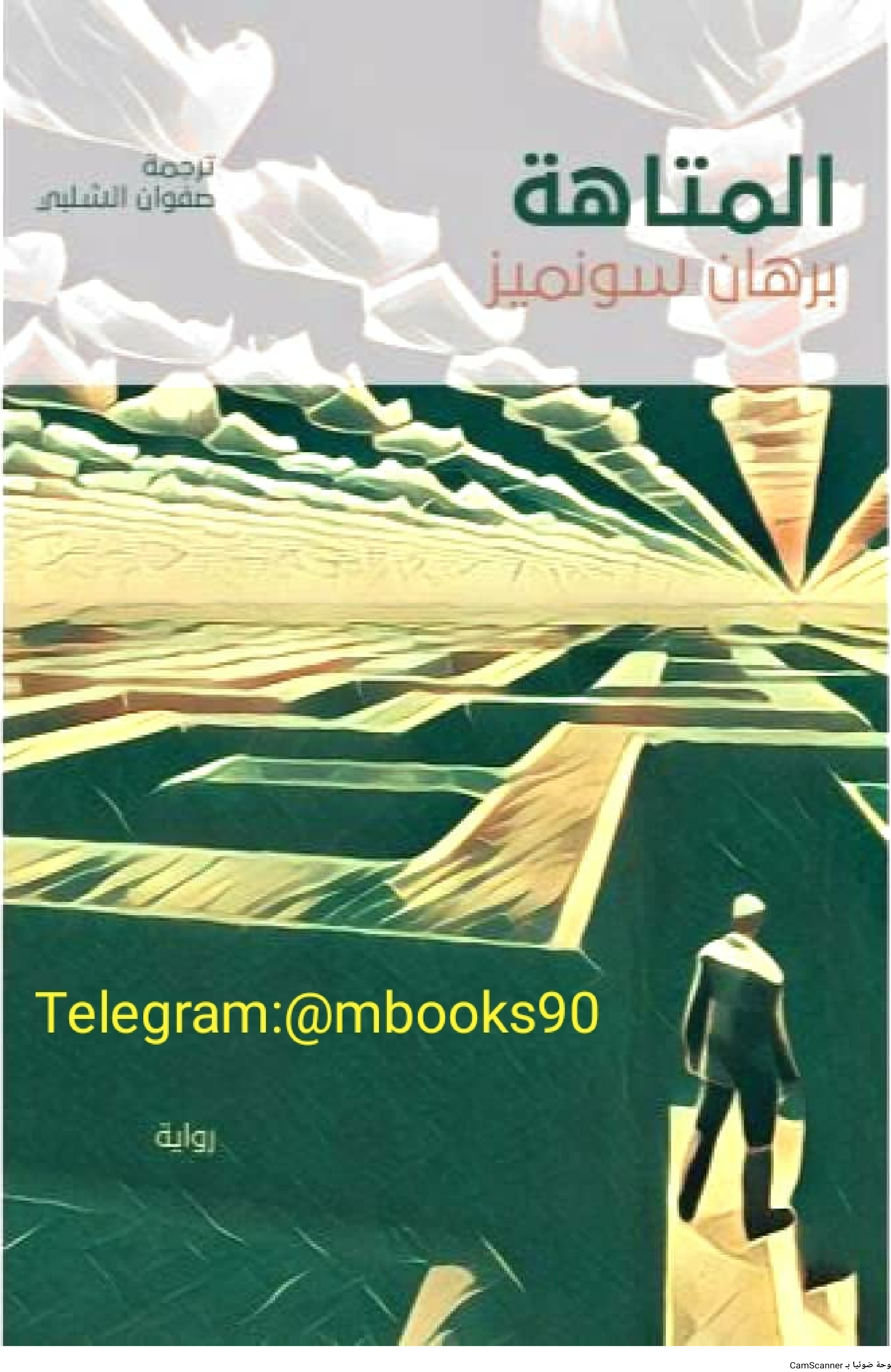

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"غريبٌ واحد يكفي لكلّ بيت"

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"ضع مرآتين الواحدة أمام الأخرى،

ستخلق لنفسك متاهة."

خورخي لويس بورخيس، سبع ليال

"الإنسان لا يبحث عن الكلمات،

بل الكلمات تسعى إليه."

من كلمة القس مونتمولان

في حفل تأبين بورخيس

٢٧٠٥٨١٨٦٥٨

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من أسفل جسر البوسفور

1

ساعة المنبه ترن. رنين المنبه يشبه رنين جرسٍ لمركب شحن، يدعو ملّاحيها المتعبين لتناول الطعام. من يتحدث عن مركب شحن؟ الصوت قادم من الشقة المجاورة، أو ربما في الأحلام؛ في حلم شخص نائم في الشقة المجاورة. الريح تهب من باب الشرفة المشرّع، وتلاعب الستارة التولية. مهما كان الموسم الآن، فإن طراوة الصباح تبعث الشعور بالانتعاش. رنين الساعة يرتفع مرافقًا لأصوات الصفارات وأبواق السيارات. ذيل الستارة التولية يداعب السرير. بوراتين، يمدّ يده بعينين مغمضتين، ليسكت المنبه. يده تتنقل فوق المنضدة الجانبية للسرير. يتوقّف. يتريّث ثم يعاود البحث. يفتح عينيه بعد فشله في الوصول إلى الساعة. الفضاء خارج البيت يشعّ بحمرة الشروق. الغرفة شبه معتمة، وأثاثها غير واضح المعالم. أين هذه الغرفة؟ لا تشبه غرفة المستشفى. غطاء السرير مختلف، والشرفة والنافذة أيضًا. أظن أني عدت إلى البيت. أجل، هذه الغرفة لا تشبه غرفة المستشفِى. السماء تطلّ من النافذة. باب الشرفة مشرّع. زجاجات وأدوية فوق المنضدة الجانبية للسرير. أضع يدي على جبيني. لابد أنني استيقظت لصداع في رأسي. أشعر بطنين في أذنيّ. لقد ساعدني الدواء على النوم، لكنه لم يُشفِ صداع رأسي. تسقط يدي على الوسادة. ينبغي عليّ متابعة النوم. الكرى يطبق أجفاني. بينما أوراق الشجرة إلى جوار الشرفة تحفّ، طراوة الصباح تداعب ذراعيّ العاريتين.

Telegram:@mbooks90

يستيقظ بوراتين بعد طلوع النهار وانحسار الرياح. الستارة التولية ساكنة. ضجيج منبعث من أحياء بعيدة يعلو باضطراد. يقلّب بوراتين نظره في ما حوله، ويحاول تذكّر إن كان قد استيقظ هنا، سابقًا. الغرفة

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

واسعة. الجدران بلون عاجي، لكن لون خزانة الثياب في الجهة المقابلة، والمغطاة بقشرة من خشب القيقب، شديد اللمعان. من الأجمل، لو كان لونها مطفيًا. من اختار خزانة الثياب هذه، هل أنا، من اخترتها؟ ينتاب بوراتين الشك بحسن ذوقه. ينظر إلى مرآة معلقة على الجدار المجاور للسرير. يبدو في المرآة، مصباح فلورسنت دائري يتدلى من وسط السقف. ضجيج لا يتوقف لسيارات وآليات وأشياء أخرى لم يستطع تذكّرها. حين اصطُحب ليلة أمس، إلى هذا البيت الذي لا يعرفه، أمل أن يتذكّر بعضًا من ذكرياته عند حلول النهار، وحين دخل غرفة النوم، أوحى له باب الشرفة وخزانة الثياب ومنضدة السرير وضجيج الشارع، أول وهلة، كأنه في غرفة فندق. لا يعرف سوى زجاجات الدواء ويديه أيضًا. يرفع يديه منذ أسبوع، وينظر إلى أصابعه الدقيقة وكفّيه التي حفظ خطوطها عن ظهر قلب. طالت أظافر أصابعه. يجلس على حافة السرير. يشعر بألم في صدره. يرفع قميصه الداخلي إلى أعلى ويلقي نظرة على أضلاع صدره، ثم يمشي نحو المرآة في الجهة الأخرى من السرير، ليرى بوضوح أكثر. خطواته بطيئة وحذرة. الأرضية الخشبية للغرفة ملساء. يتقدم ويقف أمام المرآة. إحدى أضلاعه اليمنى مصابة بكسر. يتلمّس ذلك الطرف من صدره. يشعر بألم. محظوظ، هذا ما قيل له. مجرد كسر واحد. لا ضرر في أية ناحية أخرى من جسمه: لا يُعتبر فقدان الذاكرة إصابة جسدية. يرفع بصره نحو وجهه. وجهه الذي تعرّف عليه منذ أسبوع. حديث جدًا. يثبّت نظره. مرحبًا أيها الغريب، يقول. الوجه في المرآة، يرد عليه بالكلمات نفسها كما يبدو من حركات شفتيه. نظرات عينيه مرتابة. حاجباه دقيقان. يشعر بغرابة من الضجيج خارج باب الشرفة وطيور النورس المحلّقة أمام النافذة، مثله كمثل طفل وُلد حديثًا يبدو له غريبًا كل أصوات العالم في الخارج، والأضواء وما حوله من ناس وأشياء. كان الوقت مساءً، حين قدم إلى البيت في الأمس. كان البيت ساكنًا. تجوّل بخطوات بطيئة وحذرة، في الغرف كأنه يتجوّل في

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

متحف، يتأمل معروضاته بذهول. مرّ بحذر بين التحف والجيتارات، دون أن يلمس أيًا منها. أخرج أدويته من كيس يحمل شعار المستشفى. تناول أدويته، وشرب كأسين من الماء. جلس طويلًا على حافة السرير. خلع قميصه وبنطاله وجواربه. تمدّد على السرير، أغمض عينيه وانتظر بلا حراك. شرع بعدّ شهقاته وزفراته . لم ينسَ الأعداد. شعر بالرضا. تابع العدّ. واحد وأربعون، اثنان وأربعون، ثلاثة وأربعون، حتى غلبه النوم.

يوم جديد مثل باب جديد فُتح على الدنيا. حين استيقظ هذا الصباح، في هذه الغرفة، شعر بأنه وُلد من جديد أول مرة، مع أنه لم ينتبّه هذا الشعور حين فتح عينيه في المستشفى، قبل أسبوع مضى. ربما صداع رأسه حال بينه وبين التفكير بشيء آخر. لم يكن يعلم شيئًا عن الحياة كحين ولدته أمه. كل شيء قد ضاع في غياهب النسيان مع ذاكرته المفقودة. هذه المرة، يُولد من نفسه. كان يدرك أنه موجود وحسب. استيقظ على التفكير منذ لحظة ولادته الجديدة، لا مثلما ولدته أمه في ماضيه. أينبغي أن يشعر بالخوف، أم عليه أن لا يبالي؟ حار في اتخاذ القرار الصواب. قيل له في المستشفى، أن لا يقلق ويضطرب. كما قيل له، لقد فقدت ذاكرتك، لا تخشَ شيئًا، ستتحسن حالك مع مرور الوقت. اعتنوا بمعالجة ضلعه أولًا، ثم انتابهم الشعور بالقلق على حال هذا الرجل وما يعانيه لإعادة ذاكرته وماضيه. أمر يدعو للحيرة، أراك تشعرين بالقلق على حالي أكثر مني، قال لطبيبته؛ وأجابته بدورها، هذا عملي. فقدان الذاكرة مؤشر سيّئ، لكنك تبدو في حال جيدة نسبيًا، يا سيد بوراتين. على الأقل تعرف هويتك التي تحملها في محفظتك، وتعرف عنوان إقامتك. لكن هناك أشياء أخرى لا تذكرها، كذلك الوشم الذي على ظهرك، لا تعرف أين أجريته ولِمَ أجريته. ما لا تعيه من أمور في الوقت الحاضر، ستدرك حقيقته مع مرور الوقت. الإنسان هكذا أيضًا، هو جزء من هذه الحياة قبل ولادته، وله نصيب في هذه الدنيا بعد ولادته. أنت، نحن،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جميعنا في الحال نفسها. لتكن حياتك في الماضي ما تكون، ربما كانت قاسية عليك من جهة ما، وتريد الخلاص من ذكراها. لقد تصرفت بجرأة، بل نجحت بذلك أيضًا. وصلت إلى هدفك المنشود من طريق لم يخطر لك على بال. من أسفل جسر البوسفور... ستخط طريقك على نحو أفضل بعد الآن. أتقدمين هذا النصح نفسه دائمًا، إلى كل مرضاك إلى جانب العلاج، يا دكتورة؟ إذن أوضحي لي: عقلي لا يتذكر ولا معلومة واحدة عن حياتي الماضية، رغم امتلائه بزخم من المعلومات الأخرى. أعرف أسماء فلاسفة العصور القديمة، وألوان قمصان الفرق الرياضية، وأقوال أول رائد للفضاء هبط على سطح القمر. لكنني لا أرى أثرًا لنفسي في محفظتي، ولا حتى أتذكر اسمي. ذلك الاسم، بوراتين، أنت ذكرتيه، وأنا سلّمت به.

ضوء النهار يغمر الغرفة. أبحث في وجهي الذي في المرآة، عن أية إفادة توجهني، أو إشارة ترشدني إلى شيء ما. أحرك شفتيّ محاولًا قول شيء ما. الوجه الذي في المرآة يبحث عن كلمة؛ كلمة لا يعرف ما تكون. يريد مساعدتي ومساعدة نفسه أيضًا. أقترب من المرآة أكثر. أتشوّق لسماع كلمة تخرج من شفتيه، تعيد لي الماضي. أضع أذني على المرآة محاولًا الاقتراب من فمه. أملس ورطب. أسمع همهمة لموجة من ما قبل التاريخ قد حُشرت في المرآة. الظلمة تتوق للهبوط. رائحة رطوبة لمخزن. عشت فيه في الماضي، لكنني الآن، على وشك العيش خارجه. هذه المرة، ستسعى ذاكرتي للهبوط من سلّم آخر، وبينما يضيء فنار أزرق اللون في مخزن الذاكرة، أجفل من رنين هاتف، على حين غرة. هل يصدر الصوت من داخل المرآة أم من خارجها؟ الصوت يشبه رنين منبه الساعة الذي دام طوال الليل. أخرج إلى الردهة متعقبًا الصوت. أمرّ من جوار لوحة كئيبة. حين رؤيتي لهاتف بلون أحمر وأسود في نهاية الصالة، أتوقف مفكرًا بما ينبغي عليّ فعله. الهاتف يصمت قبل اتخاذي

لأي قرار. سماعة الهاتف من طراز قديم، أرقامه ليست مفاتيحًا بل قرصًا دوّارًا، ومزدانًا بزخرف ذهبي يهواه كبار السن. يعيد ضياء النهار الحياة إلى الهاتف، فيشرع بالرنين ثانية. يبدو أنه أشد تصميمًا من السابق. إن أجبت، فصوت غريب سيسألني عن حالي. لن يرى حاجة للتعريف بنفسه. يظن أني أعرفه. سيكرر سؤاله حين لا أجيبه، وبعد تردد وجيز، سيشرع بالكلام نيابة عني. سيتحدث حول أمور ينبغي علينا إنجازها. سيتطرّق إلى اجتماع أو دعوة عشاء. سيتصنّع بالحديث عن سوء طالع الحياة. بعد أن يُظهر قليلًا من التعاطف، سيشرع بمعاتبتي بصوت حزين. سيعدّد كل مساوئ الحياة، وسيذكر أسماء الضحايا لكل سيئة، وسيحمّلني لعنة كل ضحية دون منحي الفرصة لإغلاق الهاتف. سينتقل من حديث إلى آخر طالما بقيت صامتًا. حين يأتي الدور للحديث عما فعلته من أجله، يهدئ من صوته، ويقول إن ما ناله من نعم الدنيا كان بفضلي، لكنه لا يفهم سبب وقوعي في هذه الحال. أجد فرصة للتكلم ومشاركته الحديث. أنا أيضًا، لا أفهم سبب وقوعي في هذه الحال، سأجيب، وأطلب منه أن يساعدني ويخبرني في الحال، عمّا يعلمه عني، وعمّا نسيته من ماضيّ. لقد أضعت سنوات طويلة من عمري بفقداني لذاكرتي، وأنا الآن، أقف عند نقطة الصفر. سأطلب منه العون كأنه القيّم لماضيّ ومالكه. سأختار أرق الكلمات. سأخبر الصوت على الطرف الآخر من الهاتف، عن كل ما ظلّ عالقًا في زوايا ذاكرتي من حكايات مختلفة. أجهل الماضي بمثل ما أجهل المستقبل. أضعت بوصلتي. أشعر كأن انهيارًا ثلجيًا يتقدم بسرعة. انهيار ثلجي يندفع من خلف الأبراج وناطحات السحاب، ليختلط بضجيج حركة السير. إحساس داخلي يدفعني إلى الإسراع. أذهب وأسدل الستارة. أتأكد من إغلاق الستارة بإحكام حتى لا ينفذ الضوء من أطرافها. ينقطع صوت الهاتف.

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

2

بينما كان بوراتين جالسًا على الأريكة بانتظار أن يرن الهاتف ثانية، كانت الشمس تحاول النّفاذ من الستارة المسدلة. تتوضح معالم اللوحة المعلقة على الجدار فوق الموقدة. اللوحة لغابة شاسعة ذات ألوان صفراء وخضراء تمتدّ حتى قمم الجبال الشاهقة. الأشجار تتأرجح بخفة، والأغصان تتدلى من حواف اللوحة. هذه اللوحة تحمل روحًا مختلفة عن تلك اللوحة الكئيبة المعلقة في الردهة، وتعكس حسًا مختلفًا لشخص آخر. لم يختر اللوحتين الشخص نفسه. إن كانت إحداهما هدية والأخرى من اختياري، فأيّ اللوحتين من اختياري؟ شموع بألوان عديدة، صُفّت على رف الموقدة أسفل اللوحة. تمثال لأم وابنها نُحت بمهارة، يتوسط الشموع. أعرفهما. التمثال الرخامي للسيدة العذراء تضع على ركبتيها جسدًا بلا روح لابنها السيد المسيح، وتنظر إليه بحنان. ثنايا الرخام تنساب كالماء من جبين السيدة العذراء حتى أنفها، ومن أنفها حتى شفتيها. صدر السيد المسيح عارٍ، ويمكن تعداد أضلاعه اليمنى. وجه السيدة العذراء شاحب، تمسك ابنها بإحدى يديها، وترفع الأخرى في الهواء كأنها تدعوني لفعل شيء ما. رغمَ أني أذكر ذلك التمثال، لكنني لا أذكر البتّة متى أحضرته. كم من الأعوام مضت على معاناتهما، يا ترى؟ أبضعة أعوام فقط، أم بضعة آلاف من الأعوام؟ لا أدري. كلما تقلّب الضياء في الصالة، تتقلّب تعابير وجهيهما. مع كل حزمة ضوء وكل ظلال، تُخلق تعابير جديدة: تشابه النوم مع الموت، وفيض عميق يجري بينهما.

أرفع يدي اليسرى باسطًا أصابعي في الهواء كمن يطلب الغوث، ثم أتركها تهبط بخفة ريشة على الغطاء المخملي الأحمر للأريكة. بينما كان الشارع يعج بالباعة الجوالين والأطفال الصاخبين وسائقي السيارات وقد علت أصوات أغاني الشجن من راديوهات مركباتهم، كنت أشعر بالأمان في هذا البيت رغم جهلي إن كانت أشياؤه تخصني أم لا. بيت لا

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يمكن للشمس أو للغرباء دخوله. ينبغي على المرء الاعتياد على ما حوله من الأشياء قبل أن يعتاد على الغير في الخارج، وأن يتخذ لنفسه مكانًا بينهم. لا داعي لوجود أكثر من فرد واحد. غريب واحد يكفي لكل بيت. ما عدا ذلك، ليس له سوى انتظار الوقت لتوجيه سؤال، أو لسماع صوت، أو للتجول في الغرف، أو للإجابة على الأسئلة. لا أعلم كم من الوقت ينبغي عليّ الانتظار. ما العمل إن لم أتلقَ أي رد؟ المواسم تتقلّب. الربيع ينقضي سريعًا، لكن الصيف يمر ببطء. الخريف يمضي كأنه لم يحلّ. إن لم يكن الخريف موسم الموت، فيجب الاستعداد للشتاء. الحطب مرصوص إلى جوار الموقدة. الخزانة الخشبية ممتلئة بزجاجات نبيذ من علامات تجارية مختلفة. على الرف العلوي أقداح تبدو قديمة بقدم الخزانة العتيقة. الصالة تغصّ بالجيتارات والأسطوانات والمناضد الصغيرة والثريّات والسجاجيد كثيفة الوبر والطاولات والكراسي؛ يبدو أنها لم تُحرّك من مكانها قط. جميعها صامتة مثل بوراتين، لا لأنها لا تعلم شيئًا، بل لأنها فقدت ذاكرتها المشتركة معًا. إن يضغط على زر الحاكي لن يعمل، وإن تدور الأسطوانة المحمّلة عليه، فلن تصدح هذه المرة، بموسيقى حملتها معها منذ سنوات. لن يصدر أي صوت من جهاز الستيريو بسماعاته الضخمة القابع إلى جوار الأريكة، حتى إن ما حمّله بأي قرص مضغوط، أو إن يفتح أي محطة إذاعية. يستقيم بوراتين في الأريكة محاولًا دندنة أول لحن يخطر على باله. يتنحنح ثم يبلع ريقه. يحاول ترديد كلمات أغنية خطرت إليه من حين إلى آخر، في المستشفى، لكنه لا يعلم أين ومتى سمعها أول مرة. يتوقف. يخذله صوته. يحاول مرة أخرى. حتى لو يصدر صوته من فمه، أو حلقه، أو رئتيه، في نهاية الأمر، لن تخرج الكلمات وحدها فحسب بل معانيها أيضًا. سيعطي هيئة محددة للبيت والمرآة والشخص الذي في المرآة، ويصبغ لها دلالات من جديد. لماذا غطاء الأريكة من قماش مخملي؟ لماذا القماش بلونه الأحمر يستحضر الموت إلى الأذهان؟ لماذا القتل من شيمة الإنسان؟ إن

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

لم يكن البحث عن المعاني لكل شيء في الحياة مرضًا، سيأتي اليوم للحصول على إجابة لكل هذه الأسئلة حين تعود الحياة لذكرياته الماضية كثريّا منيرة. يرفع بوراتين بصره نحو الثريّا فوق رأسه، فيرى أسلاكًا دقيقة، ومصابيح مغشّاة، وقطعًا من الكريستال مختلفة الأحجام، تتكاثر متناثرة لتغطي السقف كله. لا يمكنه رؤية أطراف الثريّا. بين عديد قطع الكريستال هذه، حتى الثعابين تختارها وكرًا لتمضي حياتها فيها. عند منتصف الليل، حين تنام المدينة (هل تنام المدينة؟)، تخرج الثعابين من الثريّا، وتنتشر على السقف، تزحف على اللوحات بسمها القاتل، تنسل خلف الستائر وتحفّ، تبخّ سمها وتلتفّ بعضها على بعض بعشق، وحين تهمّ الشمس بالبزوغ، يسكن دمها ويلمع جلدها، فتزحف إلى أوكارها دون أن يراها أحد. لكل بيت سكانه الخفيون، هم ثعابين ذلك البيت، هم من يجلبون الشر ويجلبون الخير أيضًا.

أتساءل إن كان قد سبق لي أن عشت مثل هذه الأوهام الغريبة. بينما أدقق النظر في الأشياء حولي، عسى أن أجد في هذا البيت ما يرشدني إلى واقعي، تقع يدي على قلم إلى جوار الأريكة. صوت وقوع القلم على الأرض بدا لي بطيئًا، كوقع خطوات رجلِ عجوز يجتاز الصالة. كل شيء هنا معمّر، الطاولة والكراسي من خشب أشجار منقرضة، السجاجيد على الأرض صنو خيام الرحّل. إن كنت لا أميز ما بين عام أو ألف عام، فلابد أن هذه الحياة ليست سوى الحياة ما بعد الموت. أدرك أني يجب أن أشك بكل شيء، لا من معرفة بل من عدمها. صوت القلم. صرير خشب معمّر. ألتفت فأرى باب الخزانة العتيقة الخاصة بالنبيذ، يُفتح من تلقاء نفسه. بينما القطع الكريستالية للثريّا تصرّ، تستيقظ الثعابين في وضح النهار. ما أيقظها ليست الأصوات بل رائحة النبيذ. تخرج ألسنتها بشهية، تتفقد الأجواء. تزحف بين قطع الثريّا الكريستالية الجذابة وتهبط نحو النبيذ. هل مخزن الماضي حيث خرجت الثعابين، أم حيث تتجه؛ هل داخل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

زجاجات النبيذ، أم داخل القطع الكريستالية؟ بينما يصل صوت وقوع القلم على الأرض حتى الطرف الآخر للجدار، أتساءل متى وضعت هذا القلم هنا. الزمن خلال أسبوع مضى يمتد إلى ما لانهاية. يبدو أني قد أخذت القلم ووضعته هنا خلال ذلك الزمان. زمان بعيد جدًا.

أسمع خلال ضجيج السير في الشارع، صوتًا حادًا لكابح تلاه صوت اصطدام. أدير رأسي ناحيته. يصدر صوت اصطدام آخر. أوركسترا من أبواق السيارات. صياح. كورس من الشتائم، وأصوات تتعالى من الشرفات تدعو إلى التهدئة. لا أحد يصغي للآخر. الحال تستمر حتى سماع أصوات سيارات الشرطة في البعيد. أبواب السيارات تُفتح وتُغلق. يتابع بائع ماء جوال بيع الماء كأن شيئًا لم يقع. بينما تهدأ حدة بعض الشتائم الأخيرة مع اقتراب أصوات الإنذار القادمة بسرعة، تتوقف أصوات أبواق السيارات، وتتوقف الأصوات القادمة من الشرفات أيضًا. تعود الحياة إلى سيرها المعتاد. بينما أصل إلى دلالة ضجيج الشارع الخاصة به، أسأل نفسي لِمَ هذا البيت لا يقدم لي دلالة خاصة بي؟ أفكر بين هذه الجدران الصماء، أي منا وقع في النسيان، هل أنا من نسيت هذا البيت، أم أن البيت هو من نساني؟ من الذي لا يبوح بسريرته كمتسول أعمى منغلق على نفسه داخل محيط مجهول، منذ ليلة أمس؟ أرى أمامي ثلاثة جيتارات ترتكز على مساندها المعدنية ، فأتساءل عن العلاقة التي تجمعنا. حاكي إلى جانب الجيتارات الثلاثة وحاملة مليئة بالأسطوانات. خلفها، أغلفة أسطوانات قديمة معلقة أعلى الجدار. في بداية الصف العلوي، غلاف أسطوانة موسيقية لـ"دلتا بلوز"، يليها غلاف أسطوانة لـ"بيسي سميث"، ثم لـ"هولين وولف"، ثم "شيكاغو بلوز". في الصف الأخير غلاف معلق وحده، كُتب عليه "الغواصة". الجدار يلمع حول "الغواصة" التي لم أفهم لِمَ عُلّقت وحدها. حين أدرك أن اللمعان في الجدار ناجم عن وهج الشمس، أستدير لأرى فرجة دقيقة من

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

الستارة بقيت مفتوحة. وهج الشمس يمر من خلالها. أنهض وأكشف كامل الستارة. وهج الشمس يخطف بصري. أتراجع بضع خطوات إلى وسط الصالة. لم أرَ العالم الخارجي مذ أن فتحت عيني في المستشفى لأسبوع مضى، وحتى وصولي إلى البيت. مساء أمس، حين نزلت من سيارة الإسعاف بصحبة اثنين من العاملين في المستشفى، وبينما كنت أنظر بفضول، إلى الدنيا حولي في أضواء الحديقة، شعرت بتوق شديد، دون أن أعي إلى ماذا أتوق. ربما إلى ما عشته من حياة في الماضي، أو ربما إلى ما لم أعشه من حياة بعد. يجب أن أتحلى بالصبر، هذا ما أكّدوه لي. أعلم أن بانتظاري جمع من الناس أكثر من جمع المركبات في العالم خارج بيتي. أناس لا يمتلكون الذكاء الشديد للنمل، لكنهم لطيفون. بينما يسيرون بخطوات سريعة، يتجنّبون النظر بعضهم إلى بعض. الأصوات داخل رؤوسهم، تحجب عنهم سماع صوت صفارات البواخر، ولا يدركون اقتراب الكرة الثلجية من خلف قباب الجوامع الضخمة والكنائس. سنرحل يومًا، عن هذه الدنيا ونمضي! هذا الكلام هو أكثر ما يرددونه على ألسنتهم، لكنهم يسعون بكل الطرق إلى عدم الرحيل عن هذه الدنيا ومغادرتها. يؤمنون بما لا يعلمون، ويحيون سعيًا وراء ما يؤمنون. أنا أيضًا، على استعداد للإيمان بما لا أعلمه الآن، في هذا البيت (هل أنا على استعداد لفعل ذلك؟). أتناول القلم وأرسم خطًا على راحتي. أرسم عليها خطًا آخر. علامة الضرب. لا تحمل أي دلالة، أرسم دائرة حول الخطين، ثم أرسم مربعًا خارج الدائرة. لا يزال بلا دلالة. أضغط على القلم حتى ينغرز طرفه المدبب في راحتي. أرفع القلم حين يبدو الدم على وشك أن ينبجس. الخطوط لا تستحضر في الذهن لا كلمة ولا ملامح لشيء ما. شيء بلا دلالة. الآن كالغد، والغد بلا نهاية. الماضي لن يرجع أبدًا. لا أعلم ماذا أنتظر، أهاتفًا، أم جرس الباب، أم رسالة يحملها ساعي البريد تحمل في طياتها كل المجهول؟

الأشياء مرتبة في الصالة على نحو ملائم. يبدو أن هذا النسق لم يتبدل قط، ولن يتبدل أبدًا. أرفف المكتبة إلى جوار الهاتف مكتظة بالكتب. أسماء الكتب التي على الرف الأعلى تتوافق مع الألوان. تاريخ موسيقى البلوز، كتاب موسيقى الجاز، أِلف، زواج الجنة والجحيم. يقرأ بوراتين أسماء الكتب ويتهجّى حروفها، علّها توحي له بشيء ما، أو تساعده بكشف ذكرى منسية. ربما الماضي عبارة عن بادئة جديدة، يقول في قرارة نفسه. يفتح عينيه في المستشفى، كل مرة، ويجهد ذاكرته على الدوام، ثم يذهب بعد أيام، إلى البيت. يستيقظ على الصداع نفسه في رأسه. يتعلّم توزيع وقته بالساعة والدقيقة. يهوى أسماء المواسم بكل اللغات. ينام في ساعة متأخرة من الليل، وذات صباح، حين استيقظ في المستشفى، يدرك استسلامه لدوران الكون اللانهائي، رغم فقدانه لذاكرته. ربما الكون كان بحجم برتقالة، تصدّع وتوسّع، وفي النهاية تفجّر وانهار على نفسه، ثم عاد إلى نقطة الصفر، بحجم برتقالة. لكنه لا يعرف ما قبل الصفر. يتخذ لنفسه مسارًا دائمًا، له النهاية نفسها والبداية نفسها. فقدان الذاكرة هو محاكاة لهذا التكرار الأزلي. عبث. مجرّد. يعتقد بوراتين أن هذه الأفكار التي راودته في المستشفى، وتراوده الآن، في البيت، تدفعه إلى حافة الجنون. يطرح الأسئلة ويبحث عن مدلول في الأشياء. غطاء الأريكة المخملي الناعم جميل. اللون الأحمر للمخمل جميل. تمثال السيدة العذراء ولوحة الغابة جميلان. لكن، ما هو مدلول الجمال؟ هل كان سيعرف ذلك لو لم يفقد ذاكرته؟ هل يعرف ذلك، كل الناس الذين يسيرون بخطوات سريعة في شوارع المدينة، ويشيحون بأبصارهم عن السماء، وينظرون إلى الأرض؟

إن كان السعي للفهم مرض، يؤدي إلى الجنون، فبوراتين يعتقد أنه سيصاب بهذا المرض في أقرب وقت. ينظر حوله في وسط الصالة. يخطو بضع خطوات يمينًا ويسارًا. يتقدّم ويقف جوار الأريكة. ينقّل

يده على وبر القماش المخملي. بينما يحرّك يده كآلة ميكانيكية، يراقب أظافره وبراجمه. آلة بمشاعر إنسانية. لها دماغ، لكن البرنامج في داخلها قد لا يستجيب للأمر المعطى لها، من حين إلى آخر. يتنقّل ذهابًا وإيابًا ما بين الصفر والواحد. الكون أيضًا عبارة عن حركة ما بين هذين العددين. الحركة في أطراف أصابعه الآن، في بعدها الرابع أو ما يدعى بالزمن، تنشط كحيوان حديث الولادة. يبحث عن دلالات في اجتماع حيوان وآلة في جسد واحد، في وبر القماش، في صوت سقوط القلم على الأرض، في القطع الكريستالية للثريّا. أسئلة بلا إجابة. ضلعه يؤلمه. يضع يده على ضلعه ويتجه نحو المطبخ إلى الطرف الآخر من الردهة. بعد أن يهمّ بالخطو نحو المطبخ الذي دخله ليلة أمس، يتوقف هنيهة، ويحاول أن يستعيد في ذاكرته، موقع حوض الجلي والثلاجة. بعد أن يطمئن إلى حدسه، يطل برأسه وينظر. يشعر بالرضا حين يرى حوض الجلي والثلاجة في الموقع ذاته. المطبخ في ذاكرته، هو المطبخ نفسه. قد تكون الحياة بهذه البساطة، طالما عقله لا يُخدع بالدنيا، أو طالما الدنيا لا تتلاعب بعقله. يدخل المطبخ بثقة. يتناول إبريق الماء عن الطاولة، ويملأ الكأس. يصغي إلى صوت انسكاب الماء مِن الإبريق. يرفع كأس الماء نحو النافذة، وينظر إليه في الضوء. بينما يشرب الماء، يفكّر إن كان للضوء مذاق أم لا. يمسح الماء عن شفتيه بأصابعه. في تلك الأثناء، لا يلاحظ انزلاق الكأس بعد أن وضعه على حافة الطاولة. يجفل حين يسقط الكأس على الأرض ويتطاير شظايا. يتراجع خطوتين إلى الوراء. يسند ظهره إلى الثلاجة. يشبك أصابعه بعضها ببعض. ينظر إلى قطع الزجاج المتناثرة تحت الطاولة، وعند حواف الخزائن، وعند عتبة الباب. يشعر أن ما كان يحاوله من استعادة لدنياه، قد تهشم وتشظى كقطع الزجاج المتناثرة تلك. بينما يحاول حفظ توازنه بالتمسّك بالنضد إلى جواره، يفاجئه هذه المرة، صوت حاد لجرس. كل الأمور تجابهه دفعة واحدة. رنين هذا الجرس لا يشبه الرنين الواهن للهاتف، ولا رنين ساعة المنبه في

الشقة المجاورة أيضًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

3

افتح الباب يا بوراتين، أنا بيك. بينما أمد يدي إلى قفل الباب، أحاول استعادة صورة لوجه الصوت القادم من الخارج، في ذهني. أدير المفتاح ببطء كي أتيح الوقت لذاكرتي كي تراجع أرشيفها، لكن لا نتيجة من ذلك. أفرجِ الباب كأنه سيكشف لي عن مجهول. أنظر إلى الرجل المنتظر في الردهة المعتمة للبناية. أعرف وجهه، صديقي الذي زارني مرتين في المستشفى (أقلت صديقي؟).كان قلقًا في زيارته الأولى، وهادئًا في الأخرى. لصوته نبرة ناعمة تبعث على الاطمئنان. هل أنت بخير؟ نعم. لقد عرّجت على المستشفى صباحًا، فعلمت بخروجك، أما كنت ستبقى حتى بداية الأسبوع؟ لا أدري، أخبرتهم أمس، عن رغبتي بمغادرة المستشفى، فلم يمانعوا. كيف سمحوا لك بالمغادرة دون مرافق لك؟ لم يوافقوا في الحال. لقد اتصلوا بك، لكن هاتفك كان مغلقًا. مرضى جدد شاركوني الغرفة، ولم أرغب في البقاء مع أنينهم حتى بداية الأسبوع.

نعبر إلى الصالة، أجلس على الأريكة نفسها، ويجلس على أريكة مفردة إلى جوار الموقدة. يتلفّت حوله. بعد أنِ يتفحص ما حوله كأنه يجيء أول مرة، إلى هذا البيت، ينقل بصره نحو أرضية الصالة. يلاحظ قبلي، بقع دم متتالية على الأرض والسجادة حتى قدميّ. ماذا جرى لقدميك، يقول. يزول هدوء صوته. ينهض من مكانه. كوب قد كُسر في المطبخ قبل قليل، يبدو أني قد دست على قطع الزجاج على الأرض، حين ذهبت لفتح الباب لك. يذهب في لمح البصر، إلى المطبخ، ويعود حاملًا شاشًا وقطنًا ووعاء ممتلئًا بالماء. يتناول أيضًا، زجاجة كولونيا من رف المكتبة. يجلس أمامي على الأرض. يرفع قدميّ الواحدة تلو الأخرى وينظّفها بقطعة الشاش المبللة، لا شيء في إحداها، ويخرج قطعة زجاج من طرف الأخرى. يمسح الجرح بالكولونيا ويضغط عليه بقطعة القطن. يحضر جوربي وشبشبي من غرفة النوم. يساعدني بلبس جوربي لعلمه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بألم ضلعي. هل تناولت طعام الإفطار، يسأل حين رآني لا أزال مرتديًا ملابس النوم. أمعن التفكير بما أكلته آخر مرة، ومتى. ما أعلمه من عمري ليس سوى أسبوع واحد أمضيته في المستشفى، وتلك الأيام بعيدة الآن. استيقظت في الصباح متأخرًا، لم أتناول شيئًا بعد. لنأكل شيئًا خارج البيت إذن، ستتاح لك الفرصة للتنزه أيضًا. أقال خارج البيت؟ ربما يقصد بخارج البيت ما شاهدته في العتمة من حديقة الشقة والسماء والشرفات، عندما ترجلت من سيارة الإسعاف، ليلة الأمس. أحاول أن أجمع ما بقي في ذهني من معلومات عما رأيته مرة واحدة، فلا أتمكن من ربط ذلك مع الدنيا العائدة إليّ. أصدّق إنْ قيل لي إنّ ما شاهدته ليس سوى حلم. رأيت في أحلامي ليلة أمس، أن كل شيء حولي، يعوم على سطح الماء، يتحرك مع الأمواج هنا وهناك. الأكواب، الأسطوانات، الصور، الستائر، الأصوات، الوجوه، الأسماء. لا شيء ثابت في مكانه، ولا يرتطم بعضها ببعض. زمنها يكتنفه الغموض. هل لا يزال المغنون الذين رأيت صورهم على أغلفة الأسطوانات، على قيد الحياة، أم ماتوا؟ هل لا يزال الناس الذين لا أذكر أسماءهم أحياء، أم باتوا من عصور مضت؟ من الأفضل أن لا أخرج من البيت هذا اليوم، أقول متذرّعًا بما أحدثته قطعة الزجاج من جرح في قدمي. حسنًا، سأشتري بعض الأشياء من المتجر وأعود. يخرج بعد تنظيفه المطبخ من قطع الزجاج وإلقائه نظرة على محتويات الثلاجة. يستطيع بيك الخروج بكل سهولة إلى أي مكان في الدنيا الخاصة به، في الخارج. أنا، حتى وجهي الذي في المرآة، أراه غريبًا عني. أشبه صفحة بيضاء. لا شيء في داخلي، ولا في خارجي. اتجاهاتي مبهمة، لا شرق لي ولا غرب، ولا شمال أو جنوب. إن خطوت خطوة في أي اتجاه، أشعر كأني سأقع في بئر المصعد. أمضي أيامي بانتظار حلول المساء. بعد أن أتناول أدويتي مع جرعة ماء، أغمض عينيّ، وبينما أحاول النوم، أدعو أن يعود لي ماضيّ، وأشرع بالعدّ. واحد وأربعون، اثنان وأربعون، ثلاثة وأربعون... أتساءل إن كانت الاتجاهات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والأكواب والصور في أيامي الماضية، في أمكنتها المناسبة. هل كنتُ، في مكاني المناسب في تلك الأزمنة، يا ترى؟

يعود بيك حاملًا تشكيلة واسعة من الأطعمة. بينما يهمّ بوضعها في الخزائن، يريها لي الواحدة تلو الأخرى كي أحفظها في ذهني. يعدّ مائدة الإفطار في الصالة. يخبرني أنني أحب البيض المقلي. يصب الشاي. بينما يتحدث مطولًا عن الأجواء الجميلة في الخارج كأنه يصف أحد المنتجعات السياحية، يتابع إخباري عمّا أحب من أصناف الطعام. يضيف بيك قائلًا، غدًا، ستعدّ طعام الإفطار بنفسك، أيمكنك ذلك؟ سآتي صباحًا، أتسوّق، ثم نخرج معًا. حين كنت في المتجر قبل قليل، سألت فرقتنا عنك، يريدون زيارتك. أعتقد أنه من المستحسن أن نلتقي في الخارج. أخبرتهم أن لقاءنا سيكون غدًا مساء، في حانة ثيودورا. لابد أنك تتوق إلى النبيذ. يضحك.

ألتفت وأنظر إلى زجاجات النبيذ في الخزانة الخشبية، وأقول، يبدو أني أشرب الكثير من النبيذ، انظر إلى الخزانة الممتلئة بالزجاجات. كلا، لستَ مدمنًا، لا تختار سوى النبيذ الفاخر، وتشرب لمتعتك فقط، يقول بيك. هل أشرب شيئًا آخر؟ تشربَ بما يتناسب ومكان وجودك. مثلًا: تفضل شرب الويسكي في البار حيث نعزف ليلًا. تجيد التحكم بنفسك. لست تشبهني. أنا مغرم بالعرق، أشرب حتى الثمالة دائمًا. الشهر الماضي، أكلنا وشربنا في حانة ثيودورا، حين أخذ العرق برأسي، أنت من أوصلتني إلى البيت. غنيتُ المواويل لسائق التكسي. حقًا؟ أريد تذكر تلك اللحظة، أقول. لا داعي لتذكرك ذلك يا بوراتين، سأجعلك تعيش اللحظة نفسها ثانية. يضحك ثانية. لم يضحك قط أثناء زيارتي في المستشفى. كان يبدو هناك، أشد حزنًا مني، أما هنا، فهو أشد مرحًا مني. سأذعن له إن وجدته قريبًا من كياني، ونجحت بالوصول إلى ماضيّ. بيك، أقول، هل أنا من اخترت واشتريت أثاث البيت هذا؟ بعضه اشتريته أنت،

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والبعض الآخر يعود لصاحبة البيت.

أنظُر إلى الصالة بلا تركيز. من الستائر إلى المكتبة، ومن الثريّا إلى اللوحات. بعضها لا يلائم بعضًا (أهي غير متلائمة؟)، لكنها مرتبة. يبدو أنها لاقت اعتناء فحافظت على رونقها. منذ متى أقيم في هذا البيت؟ أسأل، ويقول بيك، انتقلت إليه منذ ثلاثة أعوام، أتينا معًا لرؤية البيت. كان يومًا مشمسًا. كنت ترتدي معطفًا جلديًا أسود اللون. أكثر ما أعجبك في البيت وأحببت، هو رؤية برج بايزيد ومنارة البحر من شرفته. صاحبة البيت أحبتك أيضًا، وقالت إنك تشبه حفيدها. أعطته لك بلا تردد. امرأة مسنة، يونانية الأصل. ما عادت ترغب بالعيش وحدها هنا، وتريد الرحيل للعيش إلى جانب ابنها.

أنظُر إلى تمثال السيدة العذراء والسيد المسيح على الموقدة. أذكر اسميهما، لكنني لا أذكر اسم صاحبة بيتي. هل التمثال لصاحبة البيت؟ السيدة العذراء لا تبكي. تعابير وجهها مزيج من الحزن والسكينة. الحزن يعود لها، بينما السكينة مستمدة من وجه ابنها في حضنها. أيقال عن هذا سمو الحياة أم تناقضها؟

بيك، منذ متى ذاك التمثال هناك؟ أتقصد تمثال السيدة العذراء؟ كان هناك منذ مجيئك إلى هنا، تركت صاحبة البيت الكثير من أغراضها. هل كنت معنيًا به سابقًا، أقصد هل كنت أتطرق بالحديث عنه؟ أسأل. كلا، هذه هي أول مرة أسمعك تتحدث عنه، كان بالنسبة لك تحفة فنية نُحتت بمهارة وحسب. (مجرّد تحفة فنية؟) لو أعرف ما كان يعنيني وما كان لا يعنيني، لسهل عليّ فهم أيّ إنسان كنته. لا أعرف حتى إن كان أحد آخر يقيم معي أم لا. لا أحد آخر يا بوراتين، تعيش وحدك. هل أقمت وحدي دائمًا؟ فتاة أقامت معك السنة الماضية، لبضعة أشهر، أنت تقيم وحدك منذ ذهابها. أين الفتاة الآن، هل انفصلنا؟ أجل، تركت إسطنبول بعيد انفصالكما.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أصمت مترددًا. رغبتي بمعرفة ذلك أشد من رغبتي بمعرفة إن كنت في حياتي الماضية أمتهن الموسيقى، أو من عائلة ثرية؛ ثم أقول، كيف أثّر الانفصال بي، أتعتقد أنه كان للفتاة دور في وصولي إلى هذه الحال؟ كلا، لا أعتقد. لم يؤثر الانفصال بك. لم تكتب عنها ولا بيت شعر واحد، ولم تشعر حتى بحاجة إلى الفضفضة عن مشاعرك خلال جلسات سمرنا. لم تكن من اللاتي يعلقن في ذاكرتك، لقد نسيتها. كيف نسيتها، أمثل تمثال السيدة العذراء؟ شفتا السيدة العذراء مطبقتان، بينما تحمل ابنها في حضنها. كتمت كل الكلمات في فمها. في عمق الرخام. منذ الصباح وعيني لا تكف عن النظر إليها، لا أستطيع منع نفسي من النظر إليها. وجهها جميل جدًا، تعابير انحناءة عنقها ونظراتها وشفتيها. جمالها يحمل أنقى صورة للحقيقة وأسماها. أشعر بالحيرة بما أعتقد بينما هذه الأفكار تدور في رأسي. الزمن هو أكثر ما أشك به. لا أدري إن كانت السيدة العذراء لا تزال على قيد الحياة. مضى زمن بعيد جدًا، عاشا منذ ألفي عام. مكانتهما الآن في المعتقدات الدينية، يقول بيك.

أفكر بالأرقام كي أكون على ثقة بحجم الزمن الذي مضى، ثم أقول، لقد مضى زمن طويل إذن. كم يمضي الزمن سريعًا! ينظر بيك إلى وجهي بغرابة. في نظراته تعابير أراها أول مرة لا تشبه تعابير القلق أو المرح. أسأل إن كنت متدينًا أم لا؟ كلا، تهوى الفن والموسيقى. هذا ما يشغل كل وقتك. تعزف على الجيتار وتغني، وتثير إعجاب الجميع في بارات موسيقى البلوز في إسطنبول. أنت الأفضل في فرقتنا. نحن نعزف لنصاحبك في أغنياتك. لا أقول ذلك كي أرفع من معنوياتك. تعلم أننا شعب، إما أن نعلي المرء في السماء أو ندفنه في أعماق الأرض. ألا توافقني الرأي؟ لا حلول وسط لدينا، لكن في قولي هذا لا أقول سوى الحقيقة يا بوراتين، أنت كاتب أغانٍ ومطرب بارع.

أنظُر إلى الأسطوانات والجيتارات متعددة الألوان. كنت سأنظر إليها

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

بالاهتمام نفسه لو كانت صنانير صيد أسماك أو بلطات ثلمة. لو اصطُحبت إلى بيت آخر، وقيل لي إني صياد سمك أو حطّاب، لسلّمت بذلك أيضًا. يمكن للإنسان أن يعيش في الماضي كل أشكال القدر. لا أعلم متى علّقت أغلفة الأسطوانات هذه على الجدار. لِمَ الغلاف الغواصة، أسفل أغلفة دلتا بلوز؟ أسأل، ولماذا ليس بغلاف أصلي وكتب بخط اليد؟ إنه اسم فرقتنا يا بوراتين. تُعدّ أول ألبوم لأغانينا منذ فترة. كتبت بخط يدك غلاف الأسطوانة وعلقته هناك.

أفهم أن بيك يثق بي، ويحبني أكثر. يريد من قلبه أن أثق به، وأن أعود الإنسان الذي كنت. يملأ أكوابنا بالشاي من جديد. يخرج علبة سجائر من جيبه، ويشعل إحداها. يتابعني بفضول، إن كنت سآخذ سيجارة من العلبة التي وضعها أمامي. لا أتردد. أتناول سيجارة وأشعلها. يترك أول نفس منها طعمًا لاذعًا في حلقي. الثاني ممتع. يتبسم بيك. ليتني، لم أدفعك إلى التدخين. ربما لما اعتدت عليه. لا تتسرع في ما يخص موضوع الحياة، يا بوراتين. في الحقيقة، لا مبرر للعجلة. دع الأمور تسير على هواها، وافعل ما يحلو لك في تلك الأثناء. أنا دائمًا إلى جانبك. سأقدم لك المساعدة. مثلًا...

يسحب بيك نفسًا من سيجارته ويفكر. إما أن قائمة عونه لي طويلة، أو ربما العكس، لا يوجد الكثير مما يجب فعله. غدًا، ثم يقول، علينا أن نسوّي بعض الأمور. بطاقاتك المصرفية وهاتفك الجوال في حال غير قابلة للاستخدام. نذهب إلى البنك ونستصدر بطاقة بنك جديدة. نشتري هاتفًا خلويًا جديدًا.

لا أستطيع تتبع ما قاله بعد ذلك. يتحدث عن حاجتي لبطاقات لإثبات وجودي خارج هذا البيت وفي الشارع، وعن أرقام، وعن مؤسسات مختلفة. كنت أفكر منذ الصباح، كيف لامرئ مثلي (أقلت امرءًا؟) أن يكتفي بالعيش على جيتار، وعلى زجاجة نبيذ، وعلى أدوية أيضًا. لا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حاجة لي لأكثر من ذلك. لا أريد شيئًا من أحد، ولا أن يطلب أحد مني شيئًا. يمكن لمن يعلم أين بيتي، أن يقرع بابي متى يشاء، ومن يريد الاتصال بي يمكنه استخدام الهاتف.

بوراتين، هاتف البيت يعمل، أليس كذلك؟ لقد اتصلت بك، لكنك لم تجب. هل أنت من اتصلت؟ أجل، لا أحد يتصل بك على هاتف البيت سواي أو أختك. أقلت أختي؟ أجل.

أدير رأسي، وأنظر إلى الهاتف المزدان بنقوش ذهبية لماعة في زاوية الصالة، كأنه سيرن في أية لحظة. أشعر بشفقة لا أعرف سببها. منذ أسبوع لم يراودني الشعور بالشفقة ولا حتى تجاه نفسي.

لقد رن الهاتف صباحًا أكثر من مرة، أقول. لابد أن المتصل الآخر هي أختي. بوراتين، هذا الهاتف موجود هنا، منذ انتقالك. لقد انتشرت الهواتف الجوالة بكثرة، حتى لم يعد أحد يستخدم الهواتف الأرضية. لقد حافظت على الهاتف الارضي، لأن أختك تفضل استخدامه.

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

كالعنكبوت لا يفارق شباكه

4

يرد إلى مسمعي حديث بين شابة وشاب، يدور حول الموت والسعادة، بينما يرتقيان المنحدر ببطء. تقول الشابة، إن كنت تبحث عن السعادة، جد لنفسك ما تتعلق به، سواء كان معتقدًا أو حبيبة. أمّا إن كنت تبحث عن الحقيقة، فاسعَ خلف الموت. شعر الشابة والشاب قد قُصّ باستقامة فوق الأذنين. أحذيتهما وساعتاهما متماثلة. صوتاهما متماثلان كتوأمين. يتوقفان حين يصلان أمام متجر للكتب القديمة. يخلعان نظارتيهما الشمسيّتين ويعلقانهما على الزر العلوي لقميصيهما. زجاج واجهة المتجر لم ينظف منذ فترة طويلة. بدا المتجر قليل الرواد وقديمًا بالنسبة لبقية المتاجر المجاورة. أحرف لافتته باهتة. يبدو في الواجهة حاكٍ كُسرت ذراعه، ويعلوه الغبار، وكتب قديمة وُضعت بغير تنظيم وبهتت ألوانها في وهج شمس الخريف، بينما شباك عنكبوت تتصدر الزاوية العلوية للواجهة بأمان، كإحدى قطعها الجديدة.

يتبادل الشابان وبائع الكتب سلامًا حارًا يشي بمعرفة سابقة. بعد تبادل السؤال عن الأحوال، ينظران إلى ساعتيهما. هل أتيا مبكرين، أم متأخرين؟ بعد أن ينظر بائع الكتب إلى ساعة الحائط ذات الإطار الخشبي، يدرك أنها متوقفة. ينظر إلى عقرب الساعات ثم إلى عقرب الدقائق، مقتربًا من الحائط ويفتح غطاءها. يسأل الشابين عن الوقت، ويعاير الساعة إلى الثالثة والخمسين، ويدير مفتاحها. يتراجع إلى الخلف، وينظر إليها كلوحة فنية نفيسة. الساعة تعمل. أدخل من الباب كالمتسلل. ألقي التحية مخاطبًا الجميع. لا أنظر إلى الساعة بل إلى الكتب على الأرفف.

تجوّل بحرية، يقول بائع الكتب. أخبرني إذا ما أعجبك شيء ما. حسنًا،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أقول.

لا أعرف لِمَ دخلت المكتبة. ربما حديث الشابين قد شدّ اهتمامي، أو ربما أردت الاطلاع على متجر الكتب القديمة. يستدير بائع الكتب، يمشي بخطوات بطيئة، ويقف خلف النضد. يشمّر عن ساعديه. يبسط مفرشًا مخمليًا فوق النضد المغبر. يمرر كفه على ثنيات المفرش. يفتح درج خزانة في الطرف الجانبي. يتناول كتابًا اختاره من بين الكتب على الأرفف، ويضعه على المفرش المخملي. الكتاب بالٍ كقطعة بورسلين أثرية استخرجت من أرض رطبة، ساحرة للغاية وقابلة للتلف. يرتدي نظارته. يلمس الكتاب بعناية. جميع بائعي الكتب والمخطوطات القديمة النادرة، ينتظرون كتابًا أو مخطوطة بحد ذاتها طوال حياتهم، وما اقتنوا من كتب أو مخطوطات على مر الأيام والسنوات، لا تحمل أهمية اقتناء المخطوطة المنشودة ذاتها، ومنذ انهيار إمبراطورية الكتب والمخطوطات القديمة هذه، فإن ما يمضيه المرء من عمره بالسعي خلف أوهامه يشبه سعي مقتني الكتب القديمة للحصول على تلك المخطوطة. قبل سنوات (كم تبلغ هذه السنوات؟) وتحت غبار الامبراطورية المنهارة تلك، كم من عائلات هاجرت، وكم من قصور هُدمت، بعد أن كانت تحتفظ بكتب قديمة ومخطوطات نادرة، تداولت الصحف أسماءها من عصر إلى عصر، ضاعت ولم يبق لها أيّ أثر. أمضى قنّاصو الفُرَص حياتهم بالبحث عن تلك الكتب، وتورطوا بجرائم قتل من أجل الحصول عليها. على سبيل المثال: يعتقد أن مخطوطة "الشمس مركز السماء" قد احترقت أثناء حريق مكتبة الإسكندريّة، والنسخة السنسكريتية لكتاب "طرق التداوي من أمراض العشق" كانت في قافلة تعرضت للنهب على طريق الحرير، وكتاب "الضحك اللانهائي" الذي أمرت ملكة نافارا، مارجريت، بجمع كل نسخه وحرقها، لأنه تسبب بوفاة الكثيرين لإصابتهم بنوبة ضحك مميتة، بينما احتفظت بنسخة واحدة منه في خزينة المملكة.

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

بائع الكتب، صاحب المتجر الذي دخلته قبل قليل، يعتقد أنه في تلك اللحظة، يقف أمام أثر نادر وقيّم بمستوى تلك الكتب. يقترب الشاب والشابة من النضد، يلمسان المفرش المخملي برفق، يقفان بحذر خشية إصابة الكتاب بضرر. يقول بائع الكتب، ما يجعل أي كتاب جميلًا، أن تشعر بميل نحوه لا تشعر بمثله نحو غيره من الكتب. لذلك لا يمكن مقارنة الكتب الجميلة بعضها ببعض.

شرع بائع الكتب بقراءة الصفحة الأولى من الكتاب كي لا يطيل عليهما الكلام، بينما الشاب والشابة ينظران إلى الكتاب عن قرب، بإعجاب وذهول كأنهما قد اكتشفا كنزًا لم يسبق لسواهما أن اكتشفه. أكتافهما مائلة، وعنقاهما منحنيان. غائبان عما يجري حولهما كأنهما صُدما لرؤية صورتهما على سطح الماء، حتى يكاد شعرهما يلامس الماء غير المرئي. في بداية الأمر، سمعا ما قاله بائع الكتب، لكنهما الآن لا يسمعان سوى تردّد صوته، وما بقي عالقًا من كلامه في ذهنيهما. الحياة، هي إدراك لمدلول الكلام. حين يختتم بائع الكتب كلامه، فيقول بشفتين مرتعشتين

Telegram:@mbooks90

إن الموت عبارة عن كلمة، يرفع الشاب والشابة رأسيهما وينظران إليه. إن كانت تلك الأفكار هي ما يعرضه الكتاب في أول صفحة منه، فماذا يقول لاحقًا؟ حين أسمع أن الموت عبارة عن كلمة، أخرج من الباب بهدوء مثلما دخلت منه. لم يشعروا بخروجي. أقف أمام المتجر. أنظر إلى صورتي المنعكسة على زجاج الواجهة، عسى أن أرى في وجهي رجفة، وفي عيني رعشة كي أتمكن من اتخاذ قرار بما يجب أن أفكر به حول ما قيل في ذلك الكتاب. ماذا لو أوقفتُ بعض المارّة في زحمة الشارع، وأخبرتهم بما يدور في عقلي من أفكار مشوشة مثلها كمثل حبات خرز اندلقت من كيس، فتناثرت على الأرض في الجهات الأربع دون أن يكون لها أي قرار بالاتجاه الذي انطلقت نحوه؟ ماذا لو أنني على هذا الرصيف أحدّث نفسي، أو أتحدث مع صورتي المنعكسة على الواجهة الزجاجية للمتجر؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كل امرئ بحاجة إلى ماضٍ، والكل يحاول استحداث ماضٍ لي. الماضي أشبه بقطار لفظك ثم غاب بعيدًا في الظلام، إن كنت لا تعلم وجهتك، ولا تعلم في أي محطة نزلت، فلن تعلم من أنت أيضًا. لماذا أنا الآن، أقف في وسط هذا الشارع ولست في بلد آخر؟ لماذا أنا في عمري هذا، ولست في عمر آخر أقف بجسدي أمام الواجهة الزجاجية وأنظر إلى نفسي؟ شعري مموج ومنكباي عريضان. لا شيء آخر أعرفه. إن أشك بالهاتف الذي في بيتي، أو بالجيتارات المصفوفة بعضها جوار بعض، لن أشك بجسدي، لأنه الشيء الوحيد الذي أمتلكه. أرفع ذراعي نحو شعري. هذان الذراعان ملكي، يتحركان متى أشاء، ويتوقفان عن الحركة متى أشاء. عيناي ترى الدنيا، وأذناي تسمعان ضجيج الشوارع. رأسي يتوجع. معدتي تجوع. ضلعي المكسور يستحضر نفسه باستمرار. بينما ماضيّ يهجرني وذهني يغادر ذلك القطار ويقف وحيدًا في الظلام، يظل جسدي مخلصًا لي. لا أشك بأن جسدي ليس لي في الحاضر فحسب، بل في الماضي أيضًا. جسدي يحمل ماضيّ من جملة ما يحمله. أقترب من صورتي على الزجاج، ثم أتراجع. ما أنا سوى جسدي ولا أي شيء آخر. يبدي الشابان في متجر الكتب اهتمامًا بكتاب ما، رغبة منهما بنسيان نفسيهما. في تلك الأثناء، يرن الهاتف الجوال لبائع الكتب. يدير بائع الكتب الهاتف، يتكلم بتكشيرة عريضة على وجهه، كأنه ليس هو من كان على وشك الوصول إلى مفهوم الحياة. يعزّز حديثه بحركات من يده. في تلك الأثناء، أستدير وأنظر إلى الشارع خلفي، أسمع حولي، رنين هواتف بنغمات مختلفة. نغمات شجية كأني في سوق للطيور. أدس يدي في جيب قميصي، وألمس هاتفي الجديد الذي اشتريته هذا الصباح. أنظُر إلى زوجين مرّا جانبي، ثم إلى امرأة بفستان مورّد تمسك ابنها من يده.

منذ الصباح، أتجول في الشوارع. أمشي بخطوات مترددة في شوارع إسطنبول. أتفحص بفضول، وجوه الداخلين والخارجين من الدوائر

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحكومية والبنوك والمتاجر. أشعر بارتباك من المرور السريع للسيارات من جانبي، ومن احتكاك أكتاف الناس بكتفي في الزحام. ظننت أن كل الناس كما في المستشفى، سيتألمون من أجلي، وينظرون إليّ بتعابير مشفِقة. في حين لم يلاحظ وجودي أحد. أرى أناسًا يُشبه بعضهم بعضًا، في ابتسامات الموظفين، وفي حبر التواقيع على الأوراق، وفي صمت الطوابير أمام الأبواب الزجاجية، لكن يبدو أنهم يحملون في داخلهم عوالم مختلفة، ربما ينتظرون سماع صوت قطار يوقظهم ذات ليلة. بينما أرتقي المنحدر خلف المرأة ذات الفستان الوردي وابنها، أتساءل إن كان أغلب الناس في هذا الشارع محظوظًا أم أن أغلبهم سيّئ الحظ. أنا، في أي فئة أقف، يا ترى؟ أمن حسن طالعي بقائي حيًا بعد أن ألقيت بنفسي من جسر البوسفور، أم من سوء طالعي فقداني لذاكرتي؟ ما قاله المريض إلى جواري في المستشفى، في ليلتي الأخيرة هناك، كان عكس ذلك: ربما بقاؤك حيًا، هو من سوء طالعك، لكن فقدانك لذاكرتك، هو من حسن طالعك. بينما أتابع الصبي وأمه، يوقع الصبي قطعة البسكويت من يده. تنحني أمه وتلتقطها. ينعطفان يسارًا. حين أنعطف خلفهما، أرى أمامي ميدانًا وبرجًا. ما إن رأيت البرجِ حتى عرفت أنه برج "غلاطة". أكنت أرتاد هذا المكان كثيرًا في الماضي؟ الميدان يعج بطاولات المقاهي والمطاعم. شمس الخريف سخية بدفئها وضيائها. أشعر ببعض العيون تلاحقني. بوراتين! بوراتين! ألتفت، فأرى بيك مندفعًا نحوي بانفعال. أين اختفيت؟ دخلت الدكان لأشتري سجائر، وحين خرجت لم أجدك. ظننت أنك ستنتظرني.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

بيك، كيف كنتُ في الماضي، شكلي، مظهري؟ إن كنت تقصد وزنك، فقد كنت كذلك دائمًا، أمّا شعرك فقد كان أطول، لقد قصّرته قليلًا. تركت سالفيك في الفترة الأخيرة. إن لا مانع لديك، نذهب اليوم إلى الحلاق، أنا أيضًا، أريد أن أقص شعري وأحلق ذقني. حسنًا، أكنت أحمل جرحًا مميزًا، مرضًا، أو عملية تجميلية؟ كيف يخطر لك مثل تلك الأفكار يا بوراتين، أنت شخص يغبطك الجميع. قريبًا ستستعيد عافيتك. ألم ترَ كيف كانت موظفة البنك تنظر إليك؟ كانت تتابعك بعينيها، رغم أني كنت أتحدث إليها. حين طلبت رقم هاتفك، لم يكن لإضافة رقمك الجديد إلى معلومات حسابك، بل بدت كأنها ترغب بالاتصال بك عند خروجها من العمل مساء. إن لم تتصل، عرج على البنك يومًا. لا يبدي بوراتين أية تعابير على وجهه. أنشرب شيئًا، يقول. حسنًا، لكن دعنا نُنهي ما خرجنا من أجله أولًا. ما هو؟ ألم تقل إنك تريد شراء ساعة منبه... إن نسيت فلا تقلق، فالنسيان اليومي حالة عرضية تحصل لنا جميعًا. على أية حال، لم أفهم ما الذي تريد فعله بالساعة، فساعة المنبه آخر ما تحتاج إليه. أنت بحاجة إلى النوم في هذه الأيام، لا إلى اليقظة. تحسّن قليلًا، وسأحضر لك بنفسي الساعة التي تريد.

يلاحظ بوراتين متجرًا لبيع الساعات في الجهة المواجهة للميدان. يشعر ببعد المسافة ما بين الميدان ودكان الساعات. يلتفت نحو الأبنية يمينًا. واجهات الأبنية طُليت بألوان مختلفة. أيّهما أجمل؟ اللون الأزرق السماوي لتلك البناية ذات الطوابق الأربعة، يستحضر لون الجيتار في بيته. في طابقها الأرضي، مقهى تمتد طاولاته حتى الميدان. يتجه بوراتين نحو طاولة شغرت للتو. يجلس على الكرسي ويتلمس أضلاعه. يتحسس مكان الألم. لابد أن الألم عاوده لارتقائه المنحدر. التكيّف مع المدينة، يحتاج إلى فترة من الوقت. يفكّر بأن لا داعي للتسرع،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كالعنكبوت في واجهة متجر الكتب القديمة، لا يفارق شباكه، عليه أن ينتظر مجيء كل شيء إليه، حتى ماضيه. الناس، ينظرون إلى الحياة مثلما ينظرون إلى الكتب في متجر الكتب القديمة. الكتب الحديثة رخيصة الثمن، والكتب القديمة غالية الثمن. في الحياة أيضًا، الزمان القديم مهم. الأمس ثمين، لا اليوم، وما قبل الأمس أرفع قيمة، لذلك، فالكل يسعى لتذكير بوراتين بماضيه، ويحاولون تقديم المبررات لما يفعلون. سينظرون إليه بعين الشفقة، إذا قال: لا يمكنني ذلك، أو إذا سأل: إن أكُن اليوم موجودًا، فربما أكون غدًا موجودًا أيضًا، لكن كيف يمكنني أن أكون في الأمس موجودًا؟ يصل سريعًا ما طلباه من قهوة. يراقب بوراتين بيك بطرف عينه، بينما يضيف السكر إلى قهوته ويحركها. لا يضيف بوراتين السكر إلى قهوته. يتناول الفنجان ببطء، يقربه من شفتيه ويرشف رشفة. يعجبه مذاقها المرّ في فمه، فيتناول رشفة أخرى. أهناك أهمية لمعرفة مذاق قهوته إن كانت بسكّر أم بدونه في الماضي؟ ما الذي يمكن استنتاجه إن كان يضيف السكر إلى قهوته في الماضي، والآن يفضلها سادة؟ عقله يرهقه. لا يريد التفكير.

أهناك شيء لا يزال علينا أن نفعله، يقول لبيك. اشترينا لك هاتفًا جوالًا، قدمنا لك طلبًا للحصول على بطاقة بنكية، وأخرجنا لك بطاقة أحوال مدنية جديدة بدل التي تلفت من الماء. يعدد بيك ما فعلناه على أصابعه، وحين يهم بلمس إصبعه الرابع، يقول، رخصة القيادة تلفت من الماء أيضًا، نستخرج لك غدًا رخصة قيادة جديدة. لماذا رخصة القيادة، أأملك سيارة؟ كلا، لكنك تقود دراجتي النارية من حين إلى آخر.

ينقل بوراتين نظره نحو شابين وفتاتين يقفان جوار دراجات نارية متوقفة في الجهة المقابلة للميدان، بعد أن لم يعرهم اهتمامه، قبل قليل. يتخيل نفسه مثلهم. ربما كان يركب الدراجة النارية ويأتي إلى هنا أيضًا. يشرب شيئًا ما وقوفًا مثلهم، يميل على كتف الفتاة إلى جواره، يتناول

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الزجاجة التي بيدها، ويتناول منها جرعة. كان يتهيأ للانطلاق، ثم يضع نظارته الشمسية على عينيه، يُركب الفتاة خلفه، يحني رأسه إلى الأمام قليلًا، بينما ينطلق في الريح. ما كان سيعنيه شيئًا خارج شعوره في تلك اللحظة. تطوّق الفتاة وسطه، وتسند صدرها على ظهره دون أن تأذي ضلعه المكسور. السرعة تحملهما في الهواء، ودنيا بألوان غامضة تجري من حولهما.

يطلبان قهوة أخرى. أنحن متماثلان في العمر؟ يسأل بوراتين. أجل، يقول بيك، بلغنا الثامنة والعشرين من عمرنا. حين سألتك موظفة البنك عن عمرك، لم تعرف بما تجيب، لكن لا أهمية لذلك، فأنا أيضًا، حين أسأل على حين غفلة، أتردد أحيانًا، وأحاول تذكّر عمري. يقول بوراتين، لو كنت مكاني، أقصد إن فقدت ذاكرتك، ماذا كنت ستفعل؟ كنت سأعتمد عليك يا بوراتين. كنت سأتبعك وذاكرتك ما دمت إلى جانبي. من الطبيعي أن نفعل هذا. نستمع لما يتذكّره الآخرون، نقارنه بما نعرفه، وندرك في كثير من الأحيان، أن هناك فجوات ومفاهيم خاطئة في أذهاننا. أفكر في حالك منذ أيام، لا تبدو سيئة جدًا. على أية حال، فالجميع يسعون للعيش بلا ماضٍ طالما استطاعوا لذلك سبيلًا. انظر إلى هؤلاء الناس، الجالسين إلى الطاولات، وعابري الميدان. يعيشون الحاضر كأنه لا أمس لهم.

ينظر بوراتين إلى الشباب في الجهة المقابلة. يسعى لفهم إن كان يمكنه رؤية ماضيهم في وجوههم. يقلّب نظره في أرجاء الميدان. يلتفت ويمعن النظر في الجالسين إلى الطاولات حوله. حين ينظر خلفه، تلتقي عيناه بعيني امرأة جالسة وحدها إلى طاولة، على بعد عدة طاولات منه. تلاقي العيون لم يكن تصادفيًا. يلاحظ أن المرأة تتابعه بنظراتها. وجهها يشبه الوجوه التي قابلها في الشوارع، منذ الصباح. المرأة تعرفه، تتابعه بنظراتها بإصرار، منذ أن جلست هناك، كأنها تنتظر لحظة تلاقي أعينهما. شعرها طويل، حاجباها مستطيلان، وأصابعها الممسكة بالسيجارة،

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طويلة. تبدو أنها بمثل عمره. تتغير تعابير وجهها، حين تسحب نفسًا من السيجارة وتنفث دخانها. تحتد نظراتها. تظهر أسنانها بين شفتيها المرتعشتين بخفة. لديها كلام تريد قوله، تكشف عنه شفتاها المتوترتان. لا أحد في هذا الزحام يعلم ما تريد سواها. يشيح بوراتين بوجهه عنها، وينظر أمامه. يمد يده ويتناول سيجارة من علبة سجائر بيك. يشعلها بالولاعة. أهناك وجه شبه بين ماضي الإنسان وبين هذه المرأة؟ عيناها تلاحقك صباحًا ومساء. وجهها جذاب، نظراتها تحمل ثقة بالنفس وغضبًا من سبب ما. تعلم بوجودها دون أن تلتفت وتنظر. يشرد ذهنك بالأصوات وبمن يمر من حولك، دون أن تغيب عنه تلك النظرات من خلفك. ستتبعك، مهما أسرعت بالابتعاد. تدير رأسك قليلًا، فتراها دائمًا، هناك. وجهها مغطى بالدخان. لا تعرف ما تعرفه هي. ترتعش يدك، تسحب دخان السيجارة بعمق، وتقول، بيك، هل تعرف المرأة الجالسة في الخلف، إلى الطاولة جوار الحائط؟ تلتفتان معًا وتنظران. المرأة قد أدارت وجهها قليلًا، وتتحدث بالهاتف. تداعب أطراف شعرها بيدها الأخرى. غير مبالية بمن حولها. لا أعرفها. لِمَ سألت؟ يقول بيك. كانت تنظر إلينا قبل قليل، أو ربما هذا ما خُيّل إليّ.

اعتدت سريعًا على عدم جلبي لانتباه الناس في الشارع. منذ الصباح، لا أحد يلتفت نحوي، ولا أحد ينظر إلى وجهي. حين تلاقت الآن، عيناي بعينيّ شخص آخر، تشوّش ذهني. من الأفضل أن لا تراني عين غريبة، ولا تلاحقني نظرات فضولية. ليتني أتجول على هواي في الشوارع، وأجلس أينما أشاء. ليت النساء المارات من أمامي، لا يلتفتن نحوي ولا ينظرن إلي، حتى لو كانت رائحة عطورهن مألوفة لي. إن نظرن إليّ لن أعرف ما ينبغي عليّ فعله. أو ماذا أقول إن ألقين التحية، وسألنني عن حالي. لقد فقدت ذاكرتي، أرجو المعذرة، لم أتعرّف عليكن. ربما أتذكّركن في لقاء آخر، لكن لا تنسينني حتى ذلك الوقت، وتذكّرن أني لم أتعرّف

عليكن سابقًا. أخبرن معارفنا بذلك، ليعلموا بجدية الأمر. لا يعتبنّ أحد من نظراتي الخالية من أي معنى، فقد أشعر بالحرج من النظرات المستهجنة خلفي. كيف حصل ذلك؟ أنا أيضًا لا أعرف. حين فتحت عيني فإذا بي كيان نكرة. لست سوى جسدًا. قرأت اسمي في ما تبقى من بطاقتي الشخصية. تأملت وجهي في المرآة، ونمت في سريري. نظرت إلى ما جمعته من أغلفة للأسطوانات. ما الذي كنت أشعر به في الماضي؟ ماذا لو لم أتمكن من معرفة ماضيّ، أو اقتنعت بأن ما يحصل لي ليس سوى حلم، حينذاك، سيكفّ عقلي عن التفكير. ماذا لو أخبرت من حولي، حين أصحو من حلمي، أنني صادقت في أحلامي شخصًا يدعى بيك، وأن امرأة بشعر طويل تابعتني بنظراتها، لكنني لا أعرف من هما. ربما سنغرق في الضحك، وربما سنضحك أكثر لو قلت إنني مغني بلوز (هل أنا مغني بلوز؟) اكتسبت شهرة من صوتي ومن وسامتي. لكن لا ماضي في الأحلام. يعيش المرء في الأحلام اللحظة نفسها فقط، دون معرفة بالماضي. أنا على هذه الحال، منذ أيام؛ أنام وأصحو على أسئلة تدعو للقلق، وأجيب على نفسي بنفسي. أرهقني ما طرحته من أسئلة في المستشفى. ربما كل ذلك هي أحلام لشخص آخر غيري. ألتفت وأنظر إلى المرأة خلفي. أحاول إيجاد تفسير لما في عينيها. تدير رأسها، تشير للنادل بيدها، وتطلب الحساب. تخرج محفظتها. تضع هاتفها في حقيبتها، وعلبة سجائرها، وولاعتها.

أصبح الجو حارًا هنا، أقول لبيك، أنذهب؟ لنطلب الحساب. نعود من الشارع حيث أتينا، عند ناصية الميدان. ازداد الزحام في جادة "يوكسك كالديريم". موسيقى مختلفة تصدح من محلٍ إلى آخر، ونمشي بين خليط من الأغاني. سقالة نُصبت على امتداد بناية من ثلاثة طوابق، تجري قصارة جدرانها الخارجية. عامل لا يعير انتباهًا لا للأغاني ولا لأصوات الشارع حوله. يصفر مدندنًا، ويأخذ خليط الإسمنت من دلو

أمامه، ويرشقه على الجدار. عند ناصية الشارع، صبي يبيع زجاجات ماء وُضعت في دلو، وينادي: ماء بارد، ماء كالثلج. في وسط الزحام، رجل يرتدي معطفًا رغم حرارة الجو، وتبدو عليه علائم الكآبة. يحمل كتابًا في يده، يخطو فوق الطريق المرصوف بالحجارة، للقاء أصدقاء له في حي "بي أوغلو". يتنهد حين يصل أمام متجر الكتب القديمة الذي دخلته قبل بعض من الوقت. بينما يرجع شعره إلى الخلف براحته، يلقي نظرة على الكتب القديمة في واجهة المتجر، ثم ينظر إلى ساعته. يبدو أنه قادر على تمييز الأحداث التي وقعت قبل عام وبين الأحداث التي وقعت قبل مائة عام، في حين، أجد صعوبة في تمييز ذلك. أشعر بالدوار. أرتطم بأحد المارين إلى جانبي. أترنح. يستفيق ألم ضلعي. أتوقف، وأتنفس بعمق. أحاول أن لا أفقد أثر المرأة ذات الشعر الطويل على بعد خطوات مني. المرأة في وسط الزحام تظهر وتختفي كغاقٍ يغوص في الأمواج ويطفو. لا تقلق يا بيك، أنا بخير. أتابع السير على الوتيرة نفسها. المرأة في نطاق نظري، لكن في هذه المرة، فالمتابَع هي والمتابِع أنا. نعبر شوارع الأحياء معها ونتوقف، أو تفترق طرقنا عند إحدى النواصي. نعود إلى حياتنا الخاصة. ضحكات تتعالى من مقهى على الجهة اليسرى، تلفت انتباهنا رغم ضجيج الشارع. ننظر إلى مجموعة مبتهجة تجلس على كراسي بأغطية مزخرفة. يبدو من مظهرهم أنهم سياح. ملامح الهدوء الظاهرة على وجوه المارة ومشاعر البهجة على وجوه السياح تشي بانتهاء الحرب منذ وقت طويل(أي حرب؟). لا تزال آثار الحرب التي سببت الألم والخوف للجميع، عالقة في ذهني، دون أن أتمكن من معرفة زمن وقوعها.

يقول بيك، جلسنا سويًا في هذا المقهى عدة مرات. إن كنت جائعًا، تعال لنأكل هنا. البيرجر لذيذ جدًا هنا. كلا، نأكل بعد أن نتجول قليلًا.

أنظُر إلى الزحام المتزايد. أدرك أنني فقدت أثر المرأة ذات الشعر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الطويل بعد أن غابت عن ناظري. أقلّب نظري في الأرجاء دون جدوى. تختفي المرأة فجأة وسط الزحام مثلما ظهرت. لم تكن في حياتي الماضية، ولا شك في أنها ليست في حياتي الحاضرة أيضًا. من الصعب أن يتكرر لقاء شخص آخر صدفة في هذه المدينة. أتباطأ في مسيري. متاجر تبيع آلات موسيقية، مكاتب عمل، خطّاطون، مطاعم شاورما. لم ألاحظ هذه الكثرة من المحلات عند ارتقائي المنحدر. أنوار عديدة الألوان تشع داخلها، في وضح النهار. حاجب ينادي أمام باب فندق يبدو من لمعان يافطته أنه قد تم افتتاحه حديثًا. نور خافت يشع من داخله. المرء يشعر بالتعب فجأة، وسط هذا الزحام. يدخل من باب بإطار أبيض، ويشعر بالحاجة إلى النوم في غرفة مسدلة ستائرها. إن أصاخ السمع إلى ضجيج الشارع، يدرك حسب شدّته، إن كان الوقت ليلًا أم نهارًا. سعادة غريبة في هذا الزحام. سعادة لا أعرفها. هل هم يعرفونها؟ عندما نصل إلى جادة واسعة عند نهاية الشارع، ضجيج للسيارات يعلو ليصم الآذان. يفترق الزحام في الاتجاهات الأربعة. عند ناصية النفق، نمر أمام مسنين يبيعون أوشحة، وعازفي ساز، ومتشردين يستجدون، ثم نعبر إلى الطرف الآخر للميدان. صرّافون، وبائعو أجهزة إلكترونية، وكلاب. كلبان متمددان أسفل الجدار المقابل. ننعطف عند زاوية البناية بحذر كي لا نثير الكلبين. يظهر أمامنا بحر صاخب. ذلك يعني أننا كنا قريبين جدًا من البحر. يا لهذا البحر كم هو شاسع! تبدو مياهه بزرقتها باردة. أمواجه المرتطمة برصيف الساحل، تتدفق من أسفل جسر غلاطة إلى البوسفور، ومن هناك إلى بحر مرمرة. أغمض عينيّ بينما الريح تصفع وجهي، وتنثر شعري. موجة ترتفع عاليًا وتهبط على الرصيف، تجري على حجارة الرصيف لتصل قطراتها حتى أطراف قدميّ. أنظر إلى قدميّ، إلى ماء البحر وحجر الرصيف المكسور. في آخر لحظة من حياتي الماضية، كان هناك بحر في المشهد الأخير لفيلم لا أذكره، وها أنا الآن هنا، أمام ذلك البحر وجهًا لوجه ثانية. اختلط عليّ كل شيء واكتنفه الغموض.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخوف بلون أزرق. النسيان يسيطر على كل شيء. بيك، هو الوحيد الذي لم ينسَني. يقف إلى جانبي ويتابع تحركاتي. سأقول كل ما يأتي على طرف لساني. لكنني لست بحاجة إلى الكلام بل إلى الفهم والإدراك. أمدّ يدي وأمسك بيك من ذراعه. أسحبه بعيدًا عن الساحل. أسحبه معي كأننا على عجلة إلى موعد ما. أمرّ جوار المقاعد. أنعطف إلى الشارع الأيسر قبل الوصول إلى رصيف الميناء. أبطئ السير حين تبتعد أصوات الأمواج والرياح. يدي مازالت ممسكة بذراع بيك. لابد أن موعد انطلاق الباخرة قد حان. الركاب، يتدافعون نحو رصيف الميناء. سيتخطّون الساعاتِ الأخيرة من يوم مضى معظمه، ولم يبقَ منه سوى القليل. سيمرون فوق البحر مع تأرجح الباخرة دون أن يدركوا حقيقة الظلام في الأعماق. في شارع ضيق، وقع خطوات كعب حذاء تطرق الأرض. اضطراب يعمّ الجميع. الباخرة على وشك الإبحار. أرتطم بإحدى النساء ثانية. يبدو أن الارتطام بالآخرين من عادتي. يجب أن أتعلم المشي في الزحام ثانية. أتنحى جانبًا وأفسح لها الطريق. يا للصدفة! إنها المرأة ذات الشعر الطويل. تنظر إلى وجهي بدهشة. أحمق، تقول بصوت خفيض كي لا يسمعه سواي. تنزل نظارتها الشمسية عن رأسها وتضعها على عينيها، وتبتعد بغضب.

هل أنت بخير، يسأل بيك. أجل، أنا بخير، أظن ذلك. أتعبني البقاء خارج البيت طوال النهار. لن آتي للقاء الأصدقاء هذا المساء. نلتقي بهم في وقت آخر. لأذهب إلى البيت وأستريح.

6

يخرج بيك من الشقة، يقف على الرصيف ويلتفت، حين يلحظ وجودي خلف الستارة، يلوّح لي بيده. بدا قلقًا لأني لم أوافق على بقائه معي، اليوم أيضًا. يخشى أن ألحق الأذى بنفسي. يظن أن بابي مغلق بالمفتاح وأني أضعت مفتاحي، وأبحث عن المفتاح الآن. الأمر ليس مثل ما يظن. أنا المفتاح بذاتي، أنظر حولي وأبحث عن الباب، لكن الباب غير موجود. أحاور نفسي داخل إطار. منذ مجيئي إلى البيت أكرر القرار نفسه: لن أكره نفسي على التفكير بالماضي بعد اليوم. هذا ما أردده كل يوم، لكنني لا أفعل شيئًا سوى ملاحقة الماضي. ذلك أشبه بأن تقول للجالس في الظلام، لا تنظر إلى الظلام. الظلام حوله أينما استدار، وإن أغمض عينيه لن يرى سوى الظلام أيضًا. لا بصيص من النور في الأفق. تمر السيارات في شارعي بهدوء هذا اليوم. لا يحدثون ضجيجًا. أيمكن أن يكون الصوت نقيض الظلام بدلًا من النور؟ صوت هذا البيت. صوت الجرس. صوت أنفاسي. أنظر إلى أغلفة الأسطوانات المعلقة على الجدار. أتجه وأجلس جوار أرفف الأسطوانات. أمرّر أصابعي على الأسطوانات، أسحب إحداها وأنظر إلى غلافها، ثم أخرى، وأخرى أيضًا. أعرف كل المطربين من صورهم على الأغلفة، لكنني لا أذكر متى وأين اشتريت كل هذه الأسطوانات. تقع يدي على أسطوانة لبيسي سميث من بينها. يبدو في الصورة على الغلاف فاتحًا فمه قليلًا، كأنه يخصني بابتسامة من أنفاسه. أغلق فمه بكفّي. أنتظر حتى تتعرّق راحتي. حين أرفع يدي، أراه لا يزال يتبسّم لي. أخرج الأسطوانة من جرابها. لا أعرف بعد، كيف سيكون وقعها عليّ. بعد أن أقلّبها بين يديي أضعها في الحاكي. تدور الأسطوانة مسرعة. ذاكرة الأسطوانة تدور بصمت. تدور حول نفسها. أعرف ما ينبغي علي فعله، أضع الإبرة على الأسطوانة. تصدر خشخشة، ثم يبدأ عزف على البيانو. بيانو غارق بغبار الماضي، مفاتيحه متآكلة. يصدح بيسي سميث

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

بصوته الترددي:

I’ve got the blues, I feel so lonely. I’ll give the world if I could only make you understand.

أفهم كلمات الأغنية. ذلك يعني أنني أعرف الإنجليزية. كما أنني أعرف أن هذه اللغة هي الإنجليزية. أتمدّد على ظهري وسط الصالة.

Cause when you’re gone, I’m worried all day long...

أبسط ذراعيّ في الاتجاهين. تسري برودة الأرض من ظهري إلى صدري. يهبط المساء سريعًا في الخارج. ضياء يتسلّل من الخارج، فأدرك أن القمر بذرٌ دون حاجة لرؤيته عبر النافذة. ريح ليلية، تلعب في الخارج. العتمة أسفل الجدران ككومة حطب. تتعالى قهقهات عبر النافذة المفتوحة. شابة وشاب يتبادلان القبل عند الناصية. جيوبهم خاوية، ولا سقف يضمهما تحته. يظهر رجل على الرصيف المقابل. يتوقف ويشعل سيجارته. كلاب ترافقه وتتوقف أيضًا. من يمشي وحيدًا في تلك الساعة، لابد أن يحمل سيجارة أو مشروبًا كحوليًا، وأن يبحث لنفسه عن ركن، يسكن إليه قبيل منتصف الليل. أسمع صَوت صفير. مطلق الصفير، شاب جالس في ضوء عمود إنارة الشارع الآخر. ربما ينتظر أحدًا ما. يتلفّت من حين إلى آخر، وينظر إلى نهاية الشارع، كأنه بانتظار قدوم أحد ما. يصفر لحنًا لإحدى أغنيات بيسي سميث. لا أعي إن كانت الأغنية حزينة أم مرحة. بينما أصغي إلى اللحن، خيالات تتراءى في مخيلتي، لكنني لا أستعيد أي ذكرى. خيالات بلا روح تتراقص على التوالي، وتختلط مع أناس وأصوات الليل. أصغي إلى اللحن دون أن تثير في نفسي لا مشاعر شوق ولا حنين. ما الذي كنت أشعر به في الماضي؟

Baby won’t you please come home, Baby won’t you please come home...

٢٧٠٥٨١٨٦٥٨

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أسمع صوتًا فألتفت بحركة لا إرادية. الصوت ليس سوى رنين الهاتف. أنهض من مكاني. أصل إلى الهاتف الجاثم على منضدة بلون باهت، وقديمة تبدو بعمر أكبر من عمري. أرفع السماعة وأضعها على أذني. أزيز أسلاك الهاتف، تشي بأن الصوت قادم من بعيد. في اللحظة نفسها، تتردد الأسلاك ناقلة آلاف الأصوات، وتُرجع صداها بين آلاف البيوت. أنتظر سماع الصوت القادم من بعيد. حين لا أسمع صوتًا، أنقل السماعة إلى أذني الأخرى. بوراتين، تقول امرأة. صوت ترددي كصوت بيسي سميث، لذلك بدا لي مألوفًا. أختي، أقول. أجل يا أخي. قد يلي ذلك صمت قصير. قد تتكلم بلا توقف، وأجيب بترديد أصواتٍ تسلّم بصحة أقوالها. أنظر بعينين زائغتين. لا أنجح في شيء ولا حتى في الضحك. أعدّ نفسي للاقتناع بدنيا من المظاهر التي تحيط بي، أسكت جوعي وأنام بمساعدة الدواء. أعتقد بصحة ما يعلمونني إياه. هل أنت معي، يا بوراتين؟ أجل يا أختي، أقول. الشيء الوحيد الذي أعرفه أني هنا، في بيتٍ لا أعرفه. بوراتين، أحاول الاتصال بك، منذ أيام، أما زلت تحيي الكثير من الحفلات الموسيقية؟ أأقول لا أتذكرك يا أختي، لا أعرف تقاسيم وجهك، ولن أتعرف عليك إن التقينا في الشارع؟ لكنني أقول، أنا مشغول جدًا يا أختي، دائمًا خارج البيت، ولا أعود حتى ساعة متأخرة من الليل. إنها إسطنبول يا بوراتين، تشقي الإنسان. حتى أنا رغم بعدي عنها، ينتابني الهلع حين أراها في الأفلام. أنت ما زلت شابًا لا تهتم بصحتك. كنت كذلك في طفولتك أيضًا، تذهب لتلعب بالبلي، وتنسى طعامك، تركض خلف الكرة في الشارع حتى المساء، ثم أُولعت بالعزف على الجيتار. كلما تتصل أختي بي، تكرر هذا الكلام. تسرد أحداثًا من طفولتي، في كل اتصال هاتفي لها. سعادتها في ذكريات الماضي. أدرك سعادتها من نبرة صوتها الناعمة. تحب إسداء نصائح حنونة لي. إياك أن تهمل صحتك فتمرض. كلا، يا أختي، لست بمهمل إلى هذه الدرجة. الحديث مع أختي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ليس سوى تمثيل. أعتاد عليه سريعًا. أهذه هي الحياة؟ ماذا لو أمضي أيامي بتمثيل أدوار مصطنعة... أتقول إنك لست مهملًا! لا تنسَ أنك مرضت من بقائك تحت المطر في الربيع الماضي. بل نسيث. آمل أن أقول ذلك لأختي يومًا ما. كنت تستغرق في اللعب تحت المطر في طفولتك، تقول. أشرد بالتفكير بطفل، نما وترعرع تحت المطر في بلدته البعيدة. أستحضر المطر في ذهني من الكتب والأفلام، لكنني لا أعرف كيف هو. ذلك الطفل سعيد كما في الأفلام، إلى أن يدرك أن هناك في الدنيا حيوات أخرى سيتمكن من الوصول إليها. لا أحد يستطيع كبح طموحاته. الأحلام لا تفارق ذهنه. يريد أن يتسارع الزمن، وأن تجري الحياة، وأن تُفتح الطرق أمامه، لينطلق إلى المدينة حين يأتي الأوان. أكنت مثل ذلك الطفل؟ كيف أغرمت بالجيتار في بلدة صغيرة؟ أشعر بخدر في عقلي. أبعد نفسي عن التفكير. كيف حالك يا أختي، هل الجميع بخير؟ جميعنا بخير، نمضي الوقت في الحديث مع الجيران. خرج أحد المستأجرين عندنا، ووجدت مستأجرًا آخر، سينتقل في بداية الشهر القادم. تولّى "سيركا" أمر إعداد عقد الإيجار وكتابته. لقد كبر منذ أن رأيته في زيارتك الأخيرة، أصبح شابًا. أصغي لكلمات أختي بانتباه. أحاول أن أفهم من هو سيركا. مرحى لك يا سيركا، لقد كبرت إذن، أقول. ماذا عني؟ كبُر خاله، كبُر بسرعة... مضى وقت طويل على رؤيتي له، يا أختي، كم يمضي الزمن سريعًا! أجل، مضت ثلاث سنوات، الزمن يمضي سريعًا. يأمل سيركا أن تأتي في العطلة كل سنة، لتمضيها معه. كيف لي أن أحصي سنوات عمري؟ أتيت آخر مرة يا بوراتين، لحضور جنازة صهرك. لقد اعتاد سيركا على فقدانه لأبيه مع مرور الوقت، أمله متعلق بك، يفرح بما ترسله له من هدايا، وبينما يفضّ هداياك، يقول، متى سيأتي خالي فرؤيته أحب إليّ من هداياه الجميلة هذه؟ في الفترة الأخيرة، بدأ بالغناء مثلك. يضع الكرسي أمام المرآة، يجلس ويغني لساعات. أتعلم أن صوته يشبه صوتك؟ حزين قليلًا، ومرح قليلًا. كم سنة مضت دون زيارتي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لأختي وابن أختي اليتيم. أي نوع من البشر أنا، أو على وجه الدقة، أي نوع من البشر كنت؟ يبدو أني حافظت على خط الهاتف الأرضي هذا من أجل أختي كي لا أذهب لزيارتها. سآتي، أقول، سآتي لزيارتكم بعد أن أنجز بعضًا من أعمالي. تخرج الكلمات من فمي على الفور. أصحيح ما تقول، هل ستأتي؟ تبتهج بانفعال، فأدرك أني لم يسبق لي أن وعدتها بالزيارة حتى الآن. ثلاث سنوات مضت دون أن أزور أختي. أجل، عليّ تقديم ثلاث حفلات موسيقية، سآتي بعد الانتهاء منها، وأبقى عندكم بعض الوقت. تعال يا بوراتين، لقد اشتقت إليك كثيرًا. كنت تأتي كل شهر، أثناء دراستك الجامعية. حينذاك، كنت أقول لك، لا تأتِ كثيرًا كي لا تتأخر في دراستك. كنت أخشى على ضياع وقتك في رحلتك التي تستغرق أكثر من اثنتي عشرة ساعة. أكان السفر يستغرق اثنتي عشرة ساعة يا أختي؟ أترى؟ ها أنت قد نسيت من طول انقطاعك عن المجيء. في ذلك الوقت، كنت تقول إن الرحلة ليست متعبة. كنت تركب القطار ليلًا من محطة "حيدر باشا"، وتصل إلى أنقرة صباحًا، ثم تركب من هناك لتصل إلى "نهيرجة". حين أراك بالباب فجأة، أشعر كأنني امتلكت الدنيا. كلما أتيت، كنت تقول إن نهيرجة لم تتغيّر. لا أدري إن كان قولك هذا من شكوى أم من رضا، كنت تتحدث بابتسامة رقيقة. أسألك بدوري، أتتغيّر إسطنبول؟ فكنت تجيب، أجل، كل ما فيها من أناس وأشياء يتغيّرون. ما ترينه اليوم قد لا ترينه غدًا، ما تعتقدين به في الصباح قد تنكرينه في المساء، كل امرئ يعيش كما يشاء. ألا تزال إسطنبول في تغيرٍ دائم، يا بوراتين؟ ماذا أقول، لا أدري بما أجيب.. إذا قلت إن إسطنبول لم تتغيّر منذ أيام، وإنها عالقة في لحظة لا نهائية، فلن تصدقني. الكذب والحقيقة باتا شيئًا واحدًا. الصواب والخطأ متماثلان. الجوامع المبنية من الحجارة وناطحات السحاب المبنية من الفولاذ صنوان. توقفت إسطنبول، وأنا توقفت أيضًا. هناك إجابة على الكلمات الخارجة من فمي، لكنني أشعر بحاجة إلى لغة أخرى، لغة تعبر عن المضامين لا عن المظاهر. كلماتي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غريبة عليّ. ضعت في ممر الزمن ما بين الماضي والحاضر. أبحث عن كلام أصدقه. أظن الأموات أحياء، ربما لأني أعرف العديد من الأحياء أمواتًا. ذهني مقبرة يحتضن فيها الأموات والأحياء بعضهم بعضًا. رائحة اللحم المتعفّن تختلط مع أريج العطور العابق في الأجواء. من ذا الذي يتكلم، من ذا الذي يئن، من ذا الذي يستيقظ في الصباح ليذهب إلى العمل؟ وحين يرن الهاتف، من ذا الذي يمدّ يده ويتناول السماعة، ويتكلم، ويتكدر؟ إن كان ذهني مشوشًا على هذا النحو في سنوات صباي، عندما كنت لا أزال أعيش في نهيرجة، فلا أحد يعرف ذلك سوى أختي. قد أسألها يومًا ما. أرغب بالعودة إليها كي أعرف إن كان لي ماضي أم لا. إن لم أتخلّ عن بلدتي، وإن لم أعد ثانية إلا من أجل حضور الجنازة فقط، فهل تقع كل الملامة عليّ وحدي؟ لابد أن نهيرجة لا تحقق الطموحات حتى أنها لم تستطع جذبي إليها. إن كان ما قدمته لي من خيارات غير كافٍ لتلبية طموحاتي، فعليها تقديم خيارات أكثر. إن كان الجميع لا يطمحون إلى الذهاب، فعليها أن تضع في اعتبارها أني مختلف عن الآخرين، وتتركني وشأني. بوراتين، هل تسمعني؟ أنا كماء ينساب من وعاء متصدع. لا أستطيع العودة إلىِ وعائي، وإن عدت إلى وعائي، فذلك الوعاء لن يحويني. يبدو أن قدري، أن لا أستطيع النوم رغم رغبتي بالنوم، أن لا أستطيع تذكر الأسماء في دفتر الهاتف رغم ترديدي لها مرات ومرات، أن أنظر إلى جدران زواياها لا نهائية للغرفة نفسها حيث أستيقظ كل يوم. أغاني الأسطوانات لا ترشدني إلى طريق. الخيالات لا أرواح لها، لا أشعر بلمسي لها، ولا أتمكن من لمسها. لا أستطيع إدراك ما أشعر به. هناك مخرج واحد، ينتظرني في مكان ما، رغم ذلك، أستيقظ كل صباح، دون أن أعرف ما ينبغي عليّ فعله. حين أسمع أختي تقول، بوراتين، أخي؟ يمرّ طيف بيسي سميث أمام عيني. يتبسّم برأفة كأنه يريد منحي أنفاسه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نهاية الشارع في الأفق

7

الشعاع المتسلل إلى غرفة الطبيبة من بين شرائح الستارة الحاجبة، ينشر فيها نورًا خافتًا، ويضفي إشراقة على رسومات غطاء الأريكة. الغطاء لا يزال يعبق برائحة قطة، كانت تتجول في الأرجاء، ثم اختفت عن الأعين بعد أن غادرت إلى الغرفة المجاورة. الرائحة نفسها تنبعث من المساند الجانبية للأريكة حيث تمدّدت. أهناك رائحة تنبعث مني؟ تلاحظ الطبيبة شرودي فتقدّم لي كأسًا من الماء. بعد انتظارها حتى أنهي شرب الماء، تتابع كلامها وتقول، تتجه سيارة الأجرة التي ركبتها، إلى الضفة الأخرى لإسطنبول عبر جسر البوسفور. بعد أن تتوقف حركة السير إثر وقوع حادث تصادم في وسط الجسر، تصحو على المقعد الخلفي، تفتح عينيك وتنظر عبر الزجاج محاولًا معرفة ما يجري. هذا ما رواه سائق السيارة. لو لم يقع حادث السير، لتابعت السيارة الطريق، وتابعت نومك. بعد أن انتظر السائق بضع دقائق، نزل من السيارة ليستطلع الأمر، فبدا له أن حركة السير لن تعود في وقت قريب، أخرج هاتفه واتصل بصديقه. بينما يستغرق السائق بالحديث مع صديقه، تنزل من السيارة وتمشي حتى حافة الجسر. ضجيج. البحر يلمع من انعكاس أنوار المدينة على سطحه. أصوات في الأرجاء. تطل برأسك من الجسر وتنظر إلى البحر أسفله، مع أنك كنت تريد الذهاب إلى البيت قبل توقف حركة السير. هذا ما قلته للسائق حين هممت بركوب السيارة. حقّقت حفلتك الموسيقية تلك الليلة، نجاحًا ولاقت تجاوبًا وحماسًا من الجمهور. هل أزعجك بإخبارك ذلك؟ يجب أن نتحدث حتى لو كنت لا تتذكر ذلك. قرأت أخبارًا حولك وحوارات. حين تعدّد من تحب من الموسيقيين، تذكر "كيرت كوبين" و "يافوز تشتين". كِلا الموسيقيين قد انتحرا. تنظر الطبيبة إلى الكوب في يدي متسائلة إن كنت أريد المزيد من الماء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تراقب حركة أصابعي. أفكر بأقوالها خلال جلستنا قبل السابقة، حول موت أمي وأبي في حادث سير. الكوب فارغ. يختفي من كفي. سينكسر إن ضغطت عليه. الليثيوم، هي المادة الفعّالة في ما أتناوله من دواء. الليثيوم، يسبب الخمول للدماغ، ويطرد الهواجس. يذهب قلقي ونظرتي المتشائمة للمشاكل. لو يتركني الماضي، سأتمكن من تركه أيضًا، فيصبح نسيًا منسيًا. لا أريد التفكير بذلك. إن كان إلقاء المرء لنفسه في الماء يعني رغبته بالعودة إلى رحم أمه، والقفز من مرتفع يعني الرغبة ببدء الحياة من جديد، فذلك لا يعني لي شيئًا. ذهني في عالم آخر. دكتورة، أول شيء سألتك إياه حين فتحت عيني في المستشفى كان عمّا جرى لي. فسألتني بدورك، من أنت. كنت أسمع صفارة الباخرة. لم أسمع سوى صوت صفارة الباخرة رغم ضجيج الشوارع. ما معنى سماع صوت واحد من بين آلاف الأصوات الصادرة معًا؟ سألتني عن اسمي، حين كنت أحاول تذكّر الدافع وراء رغبتي بالموت. الإجابة على أحد الأسئلة، لا يؤدي إلى الإجابة على السؤال الآخر. لِمَ الرغبة بالموت؟ كانت صفارات البواخر فقط تتردد في رأسي، ولا صدى لأصوات أبواق السيارات، وصياح الباعة المتجولين، ولا حتى أصوات النوارس. قلت يا دكتورة إن التفكير في غير الموجود، هو من قدرات عقول البشر. دكتورة، ليت كل الناس ينسون الماضي، ينامون في الليل ويصحون صباحًا بذهن خالٍ، فلا ينظرون إليّ بعين الشفقة. سيد بوراتين، عندئذ ستصبح الدنيا، دنيا مختلفة، ولبات الناس، أناسًا مختلفين. أنا أقول ذلك أيضًا، ربما لما سعى أحد لوضع نهاية لحياته، على نحو مفاجئ. الكلمات تتطاير أمام عيني كأوراق الشجر، تتهادى في الفراغ، ذات اليمين وذات اليسار. ألتقط الكلمات القريبة مني الواحدة تلو الأخرى وأحشوها في فمي، ثم أنطقها دون أن أمضغها. هذا الصباح، عندما خرجت من البيت، ما إن رآني البقّال عند الناصية، حتى هرع نحوي. يبدو أنه سمع بما أصابني. حين رآني في كامل صحتي، قال لي بابتهاج، لا أراك الله مكروهًا، كأني قد تجاوزت

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حادثًا عرضيًا. احتضن يدي بكلتا يديه، وضغط بحرارة أخوية. نادى على فتاة بباب الدكان، بدا أنها ابنته، وطلب منها تقبيل يدي. لم أسمح لها بتقبيل يدي. فتاة ما بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة من عمرها. نظراتها خجولة. نجحت في الامتحان (أي امتحان؟). شدّ البقال على يدي ثانية. شكرني وقال إن الفتاة قد نجحت في الامتحان بفضل مساعدتي لها، وأنقذت حياتها. لا أذكر إن كنت قد أعطيت دروسًا للفتاة، أم سدّدت أقساط دروس تقوية لها. عندما شرع البقال بصياغة جمل طويلة بدأها بفضلك، بدا الخجلَ على الفتاة، وأمالت رأسها إلى صدرها. مرحى لكِ، فتاة ذكية، قلت. من جهة، ينتابني شعور جميل بأني لست إنسانًا سيئًا، ومن جهة أخرى، لا أعرف ماذا أقول، لذا أردت إنهاء الحديث بالابتعاد سريعًا. أدركت مرة أخرى، أني لست واثقًا من أي شيء سوى جسدي. أهناك من يثق بأشياء أخرى غير جسده؟ أتناول أدويتي ليلًا، أصحو بأمل جديد في الصباح التالي، لكن عند نهاية اليوم، أجد نفسي حيث بدأت. أجلس على حافة السرير، أتأمل يدي وذراعي وساقي، كأني أراها أول مرة. ما هو الدافع للموت؟ أكان في حياتي ما يوجب ذلك؟ بعد قضاء ليلة جميلة، غفوت في سيارة أجرة أثناء عودتي إلى البيت. أصحو، وحين أجد نفسي على حافة الجسر، أحاول الموت. إن كانت هذه هي الحياة، فربما لا شيء يوجب الموت من أجله. تأخذ الطبيبة الكأس من يدي. تلاحظ أن نظراتي متوجهة نحو مرآة في الناحية الأخرى، لا نحوها. تنتظر أن أتكلم. بعد قليل، ماذا ترى هناك؟ تسأل. أرى مرآة، تعكس أشعة الضياء. تغيّر اتجاه رسومات غطاء الأريكة. رائحة القطة تعبق في المرآة. قطرة ماء على حافة الكأس الفارغة. ضجيج الشارع يطغى على صوت الطبيبة. سيد بوراتين، هل تخبرني بما تراه؟ أرى مرآة. لا أسألك عن المرآة بل أسألك عما تراه فيها، عن وجهك. أقلت وجهي؟ أجل، أما كنت تدقق في قسمات وجهك؟ نصف أهالي المدينة، على استعداد لدفع كل ما يملكون كي يحصلوا على وجه لا عيب فيه، مثل وجهك. بدلًا من سؤالها

عن النصف الآخر من الأهالي، أقول، هل أنت طبيبة، حقًا؟ تضحك، وتقول، إن الصحفيين على حق، حين امتدحوك وشبّهوا موسيقاك بوجهك. الإنسان يعيش من أجل هذا الجمال فقط. ألتف ثانية نحو المرآة. أنظر دون أن يرفّ جفناي، مثلما أفعل كل صباح. جفنا الصورة في المرآة، لا يرفان. أنتظر من منا سيشعر بالإرهاق أولًا، ويستسلم. من سيرفّ جفناه أولًا، هو أنا. عندما أقف فترة طويلة، أمام المرآة يختلط عليّ معرفة في أي جهة من المرآة أقف. تخطر إليّ حكاية أمّ أربعة وأربعين. تمدّ الطبيبة يدها وتشير إلى أصابعي حتى تكاد تلمسها. هذه من أمهر الأصابع التي تجيد العزف على الجيتار في السنوات الأخيرة، تقول. هناك ما يستحق العيش من أجله في الحياة، يا سيد بوراتين. إذا كنت تقول إنك لا تثق بشيء سوى جسدك، فتلك بداية جيدة.

أنظر إلى أصابعي. عظامها ناتئة، وعروقها دقيقة. لماذا أنا، أنا؟ لماذا أنا بوراتين ولست طبيبًا أو بقالًا؟ جواب ذلك لا هو مكتوب على بطاقتي الشخصية ولا على بطاقتي البنكية. لماذا مات أبي وأمي في حادث سير؟ حادث سير على جسر البوسفور أدى إلى توقف حركة السير على الجسر. أصحو من النوم، أنظر عبر زجاج السيارة إلى الخارج. أظن أن أبي وأمي قد فقدا حياتهما في حادث السير هذا. لا أهمية لفارق السنوات والمسافات. قد يموت الأموات مرة أخرى، في كل الأزمنة والأمكنة. أنا، قد أولد من جديد (أيمكن أن أولد من جديد؟). حين فتحت عينيّ في المستشفى، كان بإمكانك القول يا دكتورة، إني شخص آخر لأبوين على قيد الحياة. كان بإمكانك تحريري من طفولة يتيمة. الكلمات. الكلمات. تتطاير أمام عينيّ الأحرف والأرقام والكثير من إشارات الاستفهام. أريد وضع إشارة استفهام حتى بعد كلمة نعم. ستمضي حياتي بمصاحبة "نعم" استفهامية. هل تعلمين أن لكل امرئ، أم أربعة وأربعين تشد انتباهه بقوامها. تمشي برشاقة، وتجيد الرقص. سُئلت أم أربعة وأربعين يومًا: بأي

زوجين من الأقدام تبدئين خطوك الرشيق، يا ترى؟ هل تدوسين بقدمك السابعة اليمنى أولًا، ثم تتبعينها بقدمك الرابعة عشر اليسرى؟ بعد ذلك ترفعين قدمك الحادية والعشرين، ثم تدوسين على الأرض بقدمك الثانية والثلاثين؟ أدركت أم أربعة وأربعين أنها لم تفكر بخطواتها قط حتى ذلك اليوم. شرعت بالمشي بتردد، لتحاول معرفة بأي قدم من أي زوج تبدأ الخطو. تشابكت أقدامها، وارتبكت خطواتها على الأرض المستوية، فما بالك من محاولتها الرقص. في حياتي السابقة، كنت أتعايش مع الأحداث بحكم العادة، مثل كل الآخرين. حين فقدت ذاكرتي، بث مكرهًا على التفكير بالتفاصيل. لا غنى عن استعادة ذكرى من زمان مضى لا أتذكره. أتخبّط، أرتطم بمن حولي أثناء سيري في الشارع. اضطرب تسلسل الزمن في عقلي. أرى الأزمنة الماضية كأني أعيشها الآن، وأظن أن الأمكنة البعيدة قريبة مني. في بيتي تمثال يحاكي تمثالًا في روما للسيد المسيح والسيدة العذراء. عندما أنظر إلى التمثال، أرى روما على خريطة إسطنبول. السيد المسيح صُلب حديثًا. السيدة العذراء بلباس الحداد مع اللاجئين السوريين تبحث عن قطعة خبز في الأزقة المعتمة. سرعة الضوء حُسمت. جميع القارات اكتشفت. ينتظر قريبًا، اكتشاف كوكب صالح للحياة البشرية. لقد أرهقت من تذكّر كل هذه التفاصيل، من التحقّق من صحة كل واحدة منها، ثم من محاولة ترتيب تسلسلها في زمانها الصحيح. لا أفلح في السير في الشارع. أرغب بالعودة إلى البيت، لأقفل الباب، وأبقى وحدي. أخاف من نفسي. ماذا لو كنت لست أنا... عندما كنت أرقد في المستشفى، تابعت على التلفزيون، أخبارًا حول مجرم هرب من السجن في إسطنبول. المجرم الهارب، كان يحبس ضحاياه في قبو تحت منزله، يقيد رؤوسهم وركبهم معًا، وبعد أن يعذّبهم، يدفنهم في أرض القبو، ثم يصعد إلى الطابق العلوي من بيته، ويتابع حياته العادية مع زوجته وأبنائه. ما يثير حيرتي، لا ما كان يفعله، بل كيف يمكن للآخرين العيش مع مثل هذا الرجل، يتناولون الطعام على

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مائدة واحدة، ويرقدون معًا في سرير واحد. لم يبدِ الرجل ندمًا بعد إلقاء القبض عليه، وقال إن ما فعله كان تقرّبًا لإلهه. حكم عليه بالسجن خمسة عشر عامًا. مدة طويلة في السجن. ربما سنوات السجن الطويلة جعلته يشعر بالذنب والندم. هرب من السجن. ظن أنه باستطاعته الهروب من ماضيه بحمل هوية مزورة. وجد الحياة خارج السجن غريبة، وليست كحياته السابقة. حين صحا في سيارة أجرة توقفت على الجسر في منتصف الليل، راودته الرغبة بالتخلص من حياته تكفيرًا عن ذنوبه. تسلق أسوار الجسر، وبسط ذراعيه. وثب إلى الأعلى كعصفور، وحمله جناحاه إلى الأسفل، إلى بحر لا قرار له. هناك أغنية بهذا المضمون، أليس كذلك؟ ربما أنا ذلك الرجل، هذا ما فكرت به على سريري في المستشفى. أقوال مذيع التلفزيون كانت على مسافة واحدة من أقوالك، يا دكتورة. كل شيء كان على مسافة واحدة من جسدي؛ ثم تعرفت على زحام المدينة وضجيجها. كلما أخرج إلى الشارع، أفكر بالعودة إلى البيت. أريد إقفال الأبواب، ونبذ ما يقال في الخارج. كل كلمة تستجد عليَ، تفقد مدلولها. عندما أقول إنه ينبغي عليّ التحليّ بالصبر، تتلاشى كلمة الصبر، وعندما أقول طفولتي، تتناثر أحرف كلمة طفولة. عندما أجمع الأحرف ثانية، يختلط ترتيبها، لتحمل مدلولًا جديدًا. لا أفهم المدلول الجديد. تخطر الأغاني على بالي. أقرّر تتبع النوتات، بدلًا من الكلمات. أردّد لحنًا ما. فجأة، تتبعثر النوتات، ويختفي التآلف الموسيقي. النوتة التي تغير مكانها، تعزّف نغمة خاطئة. اللحن الذي أعرفه، يتحوّل إلى ضجيج. أسدل الستائر كي لا يتسلل النور، كي لا تدخل الكلمات المختلة والنوتات من فرجة الستارة، وكي لا يزداد تشوّش ذهني.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

8

أحمل كعكة بيدي، وأتمشّى وسط حديقة عامة، أجلس على مقعد. أناس يتحادثون تحت الأشجار، وآخرون يتمدّدون نيامًا على النجيل. لا تزال إسطنبول تعيش خريفًا مشمسًا. الأجواء نفسها، منذ أن تعرفت على نفسي. تستهل صباحها بسماء صافية، وتختتم مساءها بريح باردة. زرقة السماء ثابتة من الصباح حتى المساء، لا يتغيّر فيها سوى درجتها، من المشرقة إلى القاتمة. أنظر إلى السماء بحثًا عن النوارس. إلقاء فتات الكعك إلى النوارس عادة مألوفة في إسطنبول، أكان ذلك عادة مألوفة لي أيضًا؟ أنا، أنا، أنا. ألا يوجد في هذه الدنيا مكان لا توجد في لغة ناسه كلمة أنا؟ لا يُقال من أنا، بل يُسأل من بوراتين. يُقال بوراتين جائع، بدلًا من أنا جائع. بوراتين يجلس في الحديقة. بوراتين ينظر إلى السماء. بوراتين يفكّر، لكنه لا يريد التفكير، لا يريد النهوض، لا يريد الذهاب، لا يعرف ما يريد. يمضغ الكعك ببطء. يتذكّر مذاقه رغم تناوله أول مرة. الدماغ غريب، له القدرة على التحكم بأفعالي، دون أن يقول لي شيئًا. من يمتلك من؟ هل أنا من أمتلك دماغي، أم أن دماغي من يمتلكني؟ يتردّد صوت لصفارة باخرة. إن أنهض على قدَمي، أرى الباخرة التي يتردّد صوتها في غرفة الطبيبة عبر النافذة، ولا داعي للاقتراب من البحر كي ألوّح بيدي إلى الباخرة من بعيد. قد ألوّح بيدي للباخرة، كما هو مألوف في إسطنبول. قد أحاول التقرّب إلى النوارس بالتصفير لها. كل باخرة لها سرب من النوارس خاص بها، يتبعها أينما أبحرت، حتى لو كان البحر هائجًا والرياح عاصفة. يرمي الركاب فتات الكعك إلى الهواء، فتخترق النوارس الماء كالسكين، تلتقط كل الفتات. بينما أجلس الآن على المقعد، يذهب عقلي إلى ساحل البحر وينظر إلى الباخرة. يرمي الكعك إلى النوارس. أعلم أن عقلي حي لأنه يفكّر، لكنني لست هو. أنا جالس في الحديقة آكل الكعك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أرى شخصًا يقترب بخطوات بطيئة. أدرك من نظراته أنه قادم نحوي. في مثل عمري، بشارب دقيق، وساقين طويلتين. رافع ياقة قميصه، ومشمّر عن ساعديه. السلام عليكم، يقول. وعليكم السلام، أقول. يجلس إلى جانبي. يتمطط ويسند ظهره إلى المقعد. يسحب شهيقًا عميقًا فتتوسع رئتيه، ثم يزفر مخرجًا ما سحبه من هواء، كأنه يحمل كل ثقل الحياة على كاهله. مضى زمن طويل، يقول. أجل، مضى زمن طويل، أقول. يلقي نظرة على الزحام المتزايد في الحديقة ثم يقول، كل هؤلاء لا يُؤتمن جانبهم، أنا إنسان أيضًا، ألست كذلك؟ لكن لا أحد يبالي بهمومي. انظر إلى أولئك. يجلسون جماعات هنا وهناك. لا تظنن أن الجالسين معًا يعرف بعضهم بعضًا. معظمهم غرباء عن بعض. إن أبدلوا أماكنهم وجلسوا إلى جوار آخرين، لا أحد معني بهم، سيتابعون كلامهم من حيث كانوا يجلسون. لا يتحاشون أحدًا سواي، كأني سأطلب منهم إقراضي بعض المال إن جلست إلى جوارهم. أثرثر قليلًا، فينهضون بهدوء ويبتعدون. يصمت. يرفع رأسه إلى السماء. ينتظر أن أنهض وأذهب أيضًا. لم نلتقِ منذ وقت بعيد، أقول. أين كنت؟ يغمض عينيه. يهدل كتفيه المشدودين. يتبسم ويقول، لا شك في ذلك، لم نلتقِ منذ وقت بعيد. الحياة هي نفسها، لكنني قررت أن أغيّر مجرى حياتي. لقد اشتريت لنفسي خاتم خطوبة، وأبحث الآن، عن فتاة كي أخطبها. انظر. يمدّ يده ليريني الخاتم. خاتم فضفاض يلفّ إصبعه الدقيق. يده ترتعش وظلّها أيضًا. نجلس أربعتنا براحة على المقعد. أنا، وهو، وظلّانا. هل الطبيبة من قالت إن ماضينا يشبه ظلّنا، أم أنا، من فكّر بذلك أولًا؟ ماضينا يلاحقنا حتى لو لم نلْحَظ ذلك. يبقى مثل الظلّ على مقربة منّا، بالمسافة نفسها، عبر كل ما مضى من السنوات. كيف ستعثر على الفتاة التي ستخطبها، أسأل. أذهب إلى السوق التجاري المواجه، يقول. يشيز بيده. ألمح مبنى شاهقًا في الناحية الأخرى من الجادة، خلفِ الأشجار. يستأنف كلامه ويقول، كل يوم أمرّ من هناك، أنظر في الدكاكين والمقاهي بحثًا عن خطيبتي،

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم آتي إلى هنا. يزداد زحام الحديقة بعد الظهر. أمس، رأيت إحدى النساء، شُبّه لي أنها خطيبتي. ذهبت إليها، هل أنت خطيبتي، سألتها بكل احترام. بدلًا من أن تجيبني بنعم أو لا، ابتعدت عني مهرولة. ربما لم تكن تعرف جوابًا لسؤالي، أو لم يحن الوقت بعد لتعرفه. في حين، لو أجابتني بكلمة واحدة، لأدركت أنها هي أو ليست هي. آمل أن أراها اليوم ثانية. هذه المرة، سأكون أكثر دماثة. سأخبرها أن لا داعي لخوفها مني. سأرجوها أن تجيبني بكلمة واحدة. لا أهمية للكلمات، أريد سماع صوتك، واستنشاق عبير صوتك، سأقول. الأصوات لا تحمل عبير الماضي فحسب بل المستقبل أيضًا. يحمل لنا أخبار الغد. هل أنا الوحيد من يعرف ذلك في هذه المدينة؟ سأسامح الجميع لو تناهى إليّ صوت خطيبتي، أقصد بعد عثوري عليها. سأسامح كل من أساء إلي. هل تعرف من هم؟ يتوقّف عن الكلام بانتظار إجابة مني. أهزّ رأسي يمينًا ويسارًا بالنفي. اسمعني إذن، يقول. يشرع بتعداد أسماء من أساؤوا إليه. يتهجّى كل اسم كأنه يريد مني أن أحفظه عن ظهر قلب. يتوقّف عن الكلام بعد انتهاء القائمة. يتفحّص النساء المارات. يبحث عن وجه يعرفه. يستدير نحوي، ويشرع بتكرار الأسماء ثانية. هذه المرة، يضيف إلى الأسماء صفات يقصد من خلالها سبب عفوه عن إساءاتهم. جاهل، يقول، ساذج، معدم، يتيم، يقول. أسماء لا أعرفها تختلط بعضها ببعض. الحروف تتراكم فوق بعضها. تتجمّع كل أزمنة الماضي وتتكدّس في لحظة آنية. الزمن يتثاقل. من يستطيع حمل ثقل الزمن. أوراق شجر مصفرّة. وقع خطوات نمل يتسلّق حتى أصابعي. لا أحد في الحديقة يلتفت وينظر إلينا. حلقة منعزلة أسفل كل شجرة. كلّ في حلقته منعزل. الحياة، جلبتني إلى هذا المكان وتركتني. أجلس على مقعد مع رجل لا أعرفه. أسلّم بمشاركة وحدة الرجل لوحدتي. من شدة شعوري بالوحدة؛ حتى لو نادى أحد باسمي لما التفتّ إليه ونظرت. لا أعتقد أن ذلك الاسم يخصني. من ينادي، وعلى من ينادي؟ أبحث لنفسي عن كلمات جديدة. كلمات لا تحمل ثقل الماضي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أخرج في الليل أحيانًا، وأمشي برفقة الأرقام، أخاطب نفسي: إنعطف يمينًا عند الشارع الثالث، ثم إنعطف يسارًا بعد شارعين، إسترح قليلًا عند الشارع الرابع. المشي يبعث الهدوء والسكينة في النفس. المشي يبعث في نفس هذا الرجل الهدوء والسكينة. يمكنه البحث عن مستقبله بالمشي لا بالحديث. هل سيصدقني إن قلت له ذلك؟ أنا لست ثرثارًا مثله. أريد الوصول بنفسي إلى ماضيّ بصمت، ومثابرة كمثابرة النمل بتسلق أرجل المقعد الحديدية، قادمًا من النجيل حتى الوصول إلى معصمي. لا يفكر المرء بالماضي كثيرًا حين يملك لنفسه ماضيًا، لكن المعضلة حين يفقده، ولا يتمكن من نزعه من تفكيره أبدًا. إصبر يا بوراتين، لا داعي للقلق، وتحلَّ بالصبر. أردّد ذلك عند الصباح، وعند الظهيرة، وعند المساء. الحياة جميلة. أنا وسيم. أشجع نفسي بأقوال مطمئنة كاذبة. أشعر بجانب من الحقيقة في كل كذبة. أتبع غرائزي أكثر من اتباعي لعقلي. الشمس تمنحني الأمان. يا لحيوية الأشجار في الحديقة وزحامها! تعمّ الحديقة فجأة، أصوات صياح وصراخ. نلتفت كلانا نحو مصدر الصوت، وننظر بفضول. وسط الحديقة، فتى ينتزع حقيبة امرأة، ويلوذ بالفرار. الجميع يتصايحون. أحد المطاردين للفتى يصطدم بعربة طفل. تنقلب العربة، ويقع الطفل منها على الأرض. تصرخ أمّ الطفل مذعورة. يتوقّف نصف المطاردين للفتى عن ملاحقته، ويتجهون إلى الطفل. ينتصب النائمون تحت الأشجار جلوسًا، ويقف الفضوليون على رؤوس أصابع أقدامهم ويتطلعون بفضول. نحن أيضًا، ننهض من مكاننا. أصوات. أصوات. يبتعد الرجل عني دون أن يرى حاجة لقول أي شيء. يتوجه نحو الطفل الذي وقع على الأرض، أما أنا، فأسير في الاتجاه المعاكس. أبتعد عن جلبة الزحام. أخرج من الباب الصغير للحديقة. أعبر بين المركبات المتوقّفة عن السير، إلى السوق التجاري، في الناحية الأخرى من الشارع.

الأبواب ذاتية الحركة، تُفتح وتُغلق. أدخل ساحة واسعة. أهنا مدينة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

داخل المدينة؟ جميع الممرات في السوق التجاري تصب كلها، في الساحة، والناس يلتقون هنا ويتفرقون. كل ممر يستطيل ويتحوّل إلى شارع، ينعطف ويغيب في العمق. أنظر في الأرجاء مذهولًا، حتى وإن كنت قد أتيت إلى هنا في ماضيّ. لا تشبه إسطنبول التي في الخارج. الأجواء منعشة وهادئة. وقع أقدامي على الأرض الرخامية، ينساب كالماء. لا أشعر بظل يتبعني. كأن الجميع هنا بلا ظل. الكل مثلي، منكفئ على نفسه. حين يصابون بالصداع أو الأرق، يطلبون المساعدة من الأدوية. صيدلية عند كل ناصية. النهار لا يكفي، فصيدلية مناوبة في كل ليلة. معارض للألبسة، ومحلات لبيع الأحذية، ومطاعم، ومقاهٍ، ومتاجر للمواد الغذائية، ومكتبات، ومحلات لإصلاح الأقفال، ومصارف، ودور عرض، وصالات ألعاب للأطفال، قدمت جميعها من كل أرجاء المدينة واجتمعت هنا. ليس هذا بسوق تجاري بل برج جديد، شاهق البنيان. تلفزيونات بشاشات عرض هائلة. رائحة قهوة. الشعور بالجوع. أحاول فهم سبب قدومي من الحديقة إلى هنا. ألأن ذلك الرجل أشار إلى هذا السوق التجاري في حديثه؟ لا وجود للنمل. لا حركة سير. لا صوت لصفارات الإنذار لسيارات الشرطة. الكاميرات تراقب الممرات من جميع النواحي. الأطفال يتراكضون هنا وهناك. أجلس إلى مقعد جوار شجرة. الأشجار والمقاعد تحاكي مثيلاتها في الحديقة. أتابع بنظري المسنين بخطواتهم الحذرة. أتفحص وجوههم عساني أجد فيها ما يعيد لي ماضيّ. لا تقلق، قالت الطبيبة، سيعود لك ماضيك، إن عاجلًا أو آجلًا. أظن أن طبيبتي تواظب على متابعة المسلسلات التلفزيونية، وتهوى الحديث باقتضاب. الماضي لا ينتظرني، بل سيأتي في لحظة غير متوقعة. ما يدور في رأسي قبل قليل، لا يعود لي، فرأسي محشو بكلمات الطبيبة. في الحقيقة، لا أعلم حجم ما يعود لي في ذهني. المشي، هو أفضل شيء أفعله. يمكنني أن أمشي هنا، دون أن أرتطم بأحد. أقف أمام واجهة أحد المحلات، وأنظر إلى تماثيل بلا روح لعرض

الملابس، ثم أتوجه إلى واجهة محل آخر، لأتابع حوضًا ضخمًا للأسماك. أنا، أشبه الأسماك. أسبح في مكان واحد، وأتجوّل ضمن حدود ثابتة. أحب الأسماك وأحواضها رغم خوفي من البحر. إن عشت طويلًا، سأرى تلك الأيام القادمة: في الأسواق التجارية المستقبلية سيتم إنشاء مركز ولادة في إحدى نواحيها، ومقبرة في ناحيتها الأخرى. هنا يولد المرء، يواصل حياته، وفي نهاية المطاف، يموت ويدفن هنا. ربما حياتي القادمة، ستكون على هذا النحو، إن كان لي حياة قادمة. الشمس هنا، لا تسبب الحروق لأحد، والثلج لا يصيب المرء بالبرد. حتى السماء موجودة في هذه الدنيا. بينما أصعد الأدراج المتحركة، أرفع رأسي وأنظر إلى الأعلى. الشمس تغمر الأرجاء بضيائها، عبر السقف الزجاجي، كأبهة قبة هائلة لمسجد أو لكنيسة قوطية. ألحان رنانة لمعبد بوذي تنسكب من الأعلى. أنظر إلى المارين حولي. وجوههم جامدة. يعرفون أين يتسوقون بالتنظيم نفسه، وبالنية ذاتها. أنا، لا أعرف أين أذهب، أتسكع ذات اليمين وذات اليسار. أتابع استعراضًا لمهرّج في ركن مخصّص للأطفال. أستمع إلى أغنيات الاستعراض. ألاحظ بين المتابعين، الرجل الذي كان في الحديقة قبل قليل. يحدّق حوله بعينينِ فضوليتين. أذهب ثانية إلى حوض الأسماك. ينتابني شعور آني، بأن الدنيا ليست سوى هذا السوق التجاري. لا وجود لمكان يُدعى الخارج. أتخيل واجهات المحلات كنهر جارٍ لا يتوقف، وأني جزء من حوض الأسماك ذاك. زجاج داخل الزجاج، وماء داخل الماء، وأنا وحدي في المكان ذاته.

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

9

يخرج البقّال من دكانه، يحمل كرسيًا صغيرًا ويضعه جوار الباب. قبل أن يقعد، يلقي نظرة على جانبي الرصيف، ليرى إن كان أحد المارة من معارفه. أنا من معارفه. أدخل وسط الزحام عند موقف الحافلات كي لا يراني. لا أريد أن يحاصرني اليوم أيضًا. صباح أمس، حين خرجت من البيت، أوقفني وسألني عن أحوالي ثم روى لي حكاية. هل أنا أيضًا، في الماضي، كنت أوقف الناس وأروي لهم حكايات تافهة، يا ترى؟ حكاية البقال تقول إن رجلًا مسنًا وشابًا يمضيان في سهل. يلتقيان بامرأة مسنة تبحث عن منطقة ضحلة على ضفة النهر لتعبر منها. يتقدم الشاب ليساعد المرأة. يحملها على ظهره، ويعبر بها إلى ضفة النهر الأخرى. امتعض الرجل المسن من ذلك وقال إن لمس المرأة في عقيدتنا محظور. ظل يكرر القول نفسه لعدة أيام، كلما قعدا للراحة، ويتحدث عن تحريم لمس المرأة. في النهاية، طفح الكيل بالشاب وقال، لقد حملت المرأة على ظهري، وأنزلتها قبل أيام مضت، فما بالك لا تزال تحملها في رأسك؟ حين أنهى البقال حكايته، نظر إليّ بحثًا عن تأثير حكايته على وجهي،

Telegram:@mbooks90

ومنتظرًا مني قول شيء ما. كيف حال ابنتك، قلت كي أغير مجرى الحديث، هل تسير دروسها على ما يرام؟ لا أزال أشعر بالضجر الذي سببه لي البقال أمس. لا أريد أن يراني اليوم أيضًا. أقف خلف لوحة الإعلانات في موقف الحافلات. اصطف الركاب على حافة الرصيف في الموقف انتظارًا لوصول حافلاتهم. عيونهم تحدّق في أرقام وأسماء الأحياء المكتوبة على واجهات الحافلات. حافلتا بلدية تقتربان الواحدة خلف الأخرى. يصعد معظم الركاب المنتظرين في الموقف. إن جاءت حافلة أخرى، سيصعد بقية الركاب فأبقى وحدي. في تلك الأثناء، ألقي نظرة على البقال، أنتظر لعل زبونًا يدخل الدكان فيتبعه البقال إلى الداخل. لست في حال أرغب فيها بالكلام، أو بالأحرى لا أرغب بالاستماع إلى

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حديث البقال المغرم بالثرثرة. تصل حافلة أخرى، لا تحمل على واجهتها لا رقمًا ولا اسم حي. يصعد آخر الركاب. أنظر إلى الزجاج الجانبي للحافلة. هناك أيضًا، لا رقم ولا اسم حي. أيعرف الركاب السائق؟ قد أصعد الحافلة أيضًا، وقد أجلس في المقعد الأمامي. قد أذهب حتى نهاية مسار الحافلة، ولا أعود حتى حلول الظلام، متخذًا المسار نفسه. أعود إلى أين؟ يلاحظ السائق نظراتي المترددة، فبدا كأنه ينتظر صعودي في اللحظة الأخيرة. حين يغلق الباب، يلقي علي التحية بإيماءة من رأسه، وينطلق. أقف وحدي في الموقف. أنظر إلى البقّال، لا يزال جالسًا على كرسيه الصغير. أغادر الموقف، أقفل عائدًا من نفس الاتجاه الذي أتيت منه. أدس يديّ في جيبي، وأحني ظهري. لا أعود إلى البيت من المسار نفسه. أنعطف يسارًا عند وصولي إلى ناصية الشارع. ربما كنت في الماضي، أغير مسار طريقي في معظم الأوقات، وكنت أعود إلى البيت من مسارات مختلفة. أبطئ من خطواتي كي أتعرف على الشارع الذي دخلته. امرأة على النافذة، تتكلم مع ابنتها التي تلعب على الرصيف. كلب نائم عند أسفل الجدار. بضع مركبات متوقفة على جانب الطريق. بائع متجول يأتي من بعيد، لا أعرف ما الذي يبيعه. على الرصيف الآخر، مكتبة كُتب على لافتتها "مكتبة البركة". إلى جانبها، صالون حلاقة كُتب على واجهته الزجاجية "صالون المقص الذهبي". أبواب كلاهما مشرعة. أهناك شارع هادئ في إسطنبول كهذا الشارع؟ ينتابني الفضول لمعرفة اسم الشارع. هل أعود إلى ناصيته لرؤية لوحة اسم الشارع، أم أصبر حتى أقرأ اللوحة على ناصيته الأخرى؟ الشارع طويل. أرضيته مرصوفة بالحجارة. كل حجر يليه حجر آخر، ثم يليه حجر آخر. الحجارة تتعاقب كهضاب رملية في صحراء لا نهائية. لا نهاية تبدو، ولا ظلمة المساء تحل. أنا دائمًا، في المكان ذاته، وفي الساعة نفسها. يخرج الحلاق إلى الباب. ينادي على البنت التي تلعب على الرصيف المقابل. تعالي يا ابنتي. تتبسم المرأة التي على النافذة للحلاق. هيا يا ابنتي، اذهبي عند أبيك،

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تقول. ألقي نظرة على الشارع. لا مركبة قادمة أو ذاهبة. هذه اللحظة، هي لحظة السعادة للطفلة، في لعبة لا بداية لها ولا نهاية، بين أصوات أمها وأبيها، في شارع يكرر نفسه بامتداد لا نهائي. يتردد صوت الطفلة كتغريدة فرِحة. يشير الحلاق بيده للبائع المتجول في البعيد كي يأتي إليه. يأخذ كيلوغرامًا من التفاح وكيلوغرامًا من اليوسفي. يقشر إحدى حبات اليوسفي، ويعطيها لابنته. يمكنني المجيء إلى هذا الشارع مرارًا، وأمضي فيه الأصباح والأمسيات. يمكنني أن أتذكر جيدًا هذا الشارع كطريق وحيد يؤدي إلى بيتي. على إحدى الشرفات، غسيل معلق على حبل، يتأرجح. أغنية تصدح من شقة الشرفة. من المغني؟ أهو كيرت كوبين، أم يافوز تشتين، أم أنا صاحب هذا الصوت؟ الشرفة مرتفعة. أتوقف وأنظر لعلّ أحدًا يخرج إلى الشرفة. تنتهي الأغنية سريعًا. تصل إلى نهايتها. الصوت يختفي. أعدّ حجارة الشارع متابعًا طريقي. لا ألتقي بأحد. حين أرى نهاية الشارع في الأفق أخيرًا، أستدير وأنظر خلفي. لم يعد هناك، لا الحلاق ولا الطفلة ولا المرأة على النافذة. في تلك الأثناء، تظهر أولى علائم الأصيل. المساء على وشك الحلول. أطول يوم أمضيه وحدي خارج البيت، قد أوشك على الانقضاء. أتوجه عائدًا إلى البيت. أرى في نهاية الشارع، محلًا لبيع الساعات. كتب على لافتته "الساعة المتوقّفة". أمتحن اليوم، ذاكرتي الجديدة بحفظ اللافتات عن ظهر قلب، لنرَ كم سيبقى منها في ذاكرتي حتى الغد. أقترب من واجهة المحل الواسعة. الساعات المرصوصة على الأرفف، تشير بلمعان إلى الوقت نفسه.

أدفع الباب وأدخل. يرن جرس صغير معلق بالباب. ساعاتيٌّ مُسِنّ منهمك في الإصلاح في الركن الخلفي للمحل، يدير رأسه فوق كتفيه وينظر إليّ. ينزع العدسة عن عينه اليمنى. أهلًا وسهلًا أيها الشاب، يقول. مرحبا، أقول. يحمل كأسًا من الشاي ويقترب. يتبسم ويقول، ظننتك

سائحًا لأول وهلة، توقّعت أن تجيبني بلغة أخرى. كنت أظن أنّ مَلَكَة المعرفة من أول نظرة، تنمو عند الإنسان مع تقدمه في السن. يبدو أني قد أخطأت الظن. أجل، ليس بالضرورة، أقول. أخبره عن صنف الساعة التي أبحث. ينحني ويخرج درجًا من الأسفل، ويضعه على النضد، ويقول، بعض هذه الساعات المنبهة تعمل بالبطارية، والأخرى بالنابض. جميعها بجرس، لكن رنينها يختلف من ساعة إلى أخرى. لنجرب ما تريد. الساعة الخضراء صناعة محلية، من نوع "في الوقْت"، وسعرها مناسب. إن كنت ترغب بصناعة سويسرية، أنصحك بـ "هيرتززايت"، تلك البيضاء. خيارات بالألوان، يمكن إحضار اللون الذي ترغب، من المستودع. أتناول الساعة البيضاء، وأضعها على أذني. لا صوت لها. أعطنيها، يقول الساعاتي، لأدير زنبركها. الساعة تعمل بلا بطارية. تديرها بوساطة هذا المفتاح بالخلف. حسب طلبك. يكفي أن تديرها كل يوم. صوتها خفيف، تسمعه عن قرب، ولا يزعجك إن وضعتها بعيدًا عنك. سعرها مرتفع بالنسبة للأخرى، لكن سأخفض لك من سعرها إن رغبت بها. السعر لا أهمية له، أقول. أقلّب الساعة بعد أن أدار نابضها ثم أقرّبها من أذني. لا أدرك كم مضى من الوقت. الرجل المسنِ يختفي عن ناظري. يعود بعد قليل حاملًا كأسًا من الشاي. يناولني كأس الشاي والبخار يتصاعد منه. حين يرى أني لا أزال أضع الساعة على أذني، يقول، أنت من محبي سماع صوت الساعات، هذا المكان كان لجدي في صغري، كنت آتي وأراقبه، وأصغي لصوت الساعات الواحدة تلو الأخرى. تعلمت وحدي أن لكل ساعة صوتًا مُختلفًا عن الأخرى، مثل اختلاف أصوات الناس. يا له من اختراع مدهش، كان جدي يقول. لم يكن يكتفي ببيع الساعات أو إصلاحها بل كان يشارك الآخرين بأفكاره العجيبة. كان يقول إن الإنسان قد حقق على مدى التاريخ، ما لا يقل عن ثلاثة اختراعات عظيمة. الساعة إحداها. بفضل الساعة، أصبحنا نعرف مدلول اللحظة الآنية للولادة والموت. لا ماضي ولا مستقبل في الساعة. الماضي والمستقبل كانا مانعًا مشتركًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أمام إدراك الحياة الحقيقية. لقد أرتنا الساعة ذلك، لكننا ما زلنا لم نعتد على الساعة، ولم تتجانس أرواحنا بعد. أول ساعة اقتنيتها، كانت هدية من جدي، لا تنسَ ما أقوله، قال لي. اعرف قيمة لحظتك، وما عدا ذلك ليس لك، لا تهدر عمرك هباء في شيء ليس لك. كنت مهتمًا في ذلك الوقت، بساعتي أكثر من اهتمامي بأقوال جدي. كانت ساعة عادية، لكنها كانت تبدو لي كدرّة نفيسة. كان جدي يقول، إن الاختراع العظيم الآخر هو المرآة. الدنيا خارج المرآة كينونة، وداخلها كينونة أخرى. حين يتلاقيا يصبح الاثنان وحدة واحدة. تنظر إلى المرآة فتراها قفلًا ومفتاحًا في آن معًا. مصدر لشجاعتنا ولخوفنا أيضًا في مواجهة الحياة. على المرء أن يتعلم من المرآة أن الواحد والاثنين متماثلان ومختلفان في آن واحد، وأنه يجب عليه العيش آخذًا ذلك باعتباره. برأيي، إن اعتبار جدي للمرآة البسيطة اختراعًا بعظمة اختراع الساعة، مردّه إلى أنه رأى جدتي وأحبها في محلٍ لصناعة المرايا. لم يعد في إسطنبول مثل تلك المحلات. كانت جدتي ترسم الزخارف على المرايا، وتزين حوافها بالنقوش. لا تدع الشاي يبرد، يا شاب. طازج. لقد أخذت عادة تمضية اليوم بشرب الشاي من جدي. لو كان هنا، أنا واثق من أنه كان سينصحك بالساعة البيضاء. إلى جانب النوعية الجيدة لهذه الساعة، فإن لها صوت مميز أيضًا. آخذ الساعة ثانية، وأقرّبها من أذني. حسنًا، سآخذها، أقول. بينما كان الرجل المسن يغلف الساعة، أسأله، ما هو الاختراع الثالث العظيم للإنسان الذي تحدث عنه جدك؟ ماذا؟ دعني أفكر قليلًا، ماذا كان؟ يا الله، لا أتذكره. هذه هي الشيخوخة، أن ينسى المرء في لحظة، ما كان يعرفه قبل لحظات. أيمكن أن يكون النار، أقول كي أساعده على التذكر، أو ربما العجلة؟ كلا، لا النار ولا العجلة. حسنًا، الكتابة؟ ذلك غير ممكن، فجدي لم يكن يهوى الكتابة. أكان لا يهوى الكتابة؟ نعم، كأن له حكاية حول الكتابة، يرويها أمام الجميع. كان في قديم الزمان والمكان، فيلسوف واسع المعرفة يعيش في كنف فرعون صالح. حين تواجه الفيلسوف

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

معضلة، لا يكف عن البحث والتمحيص حتى يجد لها الحل المناسب. دخل ذات يوم، على الفرعون منفعلًا، وقال، أحمل أخبارًا مدهشة، لقد اكتشفت الكتابة. ما هي الكتابة؟ سأل الفرعون. سأوضح لك، من بعد إذنك، سنضع على ألواحنا أمام كل قول لنا إشارة مختلفة. من يعلم ما ترمز إليه تلك الإشارات، سيدرك ما نرمي إليه في حال غيابنا، أي أنهم سيعرفون مرادنا دون سماعهم لصوتنا. أليس ذلك مدهشًا؟ أجل، قال الفرعون ثم بعد تفكير أضاف: لكن، هل كل شيء مدهش حسن. أشك في ذلك. كتابتك ستضع مسافة بين الناس، بين العالم والجاهل لكتابتك تلك، بينما الكلام خير وسيلة لتواصل الناس فيما بينهم، ستقيم الكتابة حاجزًا بين الناس. أشك أن في ذلك خير. كان جدي على قناعة بشك الفرعون، وظل يردّد طوال حياته، قول الفرعون كأنه قوله. لذلك، فالكتابة لم تكن من جملة ما يعتبره من الاختراعات العظيمة. أتقيم قريبًا من هنا يا شاب؟ عرّج علي بعد فترة، ربما أتذكر ما تحدث جدي عنه من اختراع ثالث. حسنًا، سأمرّ، أقول. أدفع ثمن الساعة. في تلك الأثناء، يصدر رنين للجرس المعلق بالباب. يظهر بالباب صبي حافي القدمين. يمدّ يده ويبسط كفّه. يقول شيئًا بلغة لا أعرفها. عد بعد قليل، عندي زبون الآن، يقول الساعاتي. ينتظر الطفل بضع ثوانٍ. ربما يأمل شيئًا من وجودي. لكن ذلك لا يطول، يتكلم الساعاتي بنبرة حازمة. اذهب يا بني، عندي زبون. يدرك الصبي بأنه غير مرغوب به، يسحب يده، ويخرج. يغلق الباب. أتناول علبة الساعة عن النضد، وأخرج خلف الصبي. هبطت ظلمة الليل، وأضاءت السيارات مصابيحها. أنظر إلى نهاية الجادة. ألمح لوحة مضاءة كتب عليها "مطعم الأخت عائشة"، وأرى الصبي الذي رأيته قبل قليل، جالسًا على الأرض، أمام المطعم، ويتمتم بكلمات غير مفهومة. أقترب منه، أدس يدي في جيبي، أخرج بعض القطع النقدية المعدنية، وأتركها أمام الصبي. أشير له كي ينتظرني، ثم أشتري شطيرتين من المطعم. أناوله إحداها، وأحتفظ بالأخرى لنفسي.

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حين أدخل البيت، أضيء كل الأنوار أولًا، ثم أغلق الباب بالمفتاح. أعبر إلى الصالة، أنظر إلى سجادة الصالة. وبر السجادة ينتشر بانتظام في اتجاه واحد. لا يبدو عليها أي أثر غير منتظم. أركع على ركبتيَ، أتفقّد السجادة بيدي من حافتها إلى حافتها الأخرى. أتفحّص السجادة بالنظر إليها في ضوء الثريا اللامع، ثم أتفحّصها بباطن كفي أيضًا. سجادة جميلة بقِدَمها ومتانتها. زخارفها حصيلة صبر لشغل يدوي. ألاحظ على حافة السجادة القريبة من الطاولة، بقعة وردية اختلطت بألوان السجادة الباهتة. حين أزحف على ركبتي وأنظر إليها عن قرب، أدرك أن البقعة أثر لدم. أيكون هذا الدم قد سال من قدمي حين جرحتني قطعة الزجاج قبل أيام من حياتي الحاضرة، أم هي أثر باقي من يوم ضائع من أيام حياتي الماضية؟ أسئلة لا يمكنني معرفة أجوبتها ثانية. إن كنت أخلط ما بين الأسماء المكتوبة على اللافتات التي رأيتها نهار اليوم، فكيف لي أن أعرف سبب بقعة الدم هذه على السجادة، أقول في قرارة نفسي. أرفع طرف السجادة الملوث بالدم، وأنظر تحتها. أفكر بآثار قبو قديم، ببقايا جثة متحلّلة، أو ربما بحبل استخدم لتقييد الركبتين مع الرأس. ألفّ السجادة بالكامل، وأسحبها إلى الزاوية. لا أبالي بألم ضلعي. أتفقد الأرضية الخشبية للصالة بانفعال شديد في داخلي، لا أعرف كنهه. أتفقّد بأطراف أصابعي، حواف البلاط الخشبي، البلاطة تلو البلاطة. أعيد تفقّد المكان نفسه ثانية زيادة في الحرص والتأكد. حين أكملت تفقّد الصالة، أنتقل إلى الغرف الأخرى، ابتداء من غرفة النوم. أقلب البيت رأسًا على عقب. لا أجد بين البلاطات الخشبية خلف الخزائن والأرائك سوى الغبار. أشعر بالتبلل من شدة تعرّقي، أشرب كأسًا من الماء في المطبخ، ثم أفتح باب الثلاجة وأغلقه. أصب على رأسي، ما بقي من قطرات الماء في الكأس. أعود إلى الصالة بخطوات مرهقة. أظن أن أطول يوم لي، قد حانت نهايته الفعلية. يمكنني الآن، أن أتناول طعام عشائي، وآخذ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أدويتي، وأدخل سريري. أضع الساعة التي اشتريتها اليوم، قرب رأسي، لأنام على صوت تكتكتها. حين أغمض عيني، تبدو لي تكتكة الساعة كوقع خطوات نملة على خشب المنضدة الجانبية. إنها نملة بيضاء عديدة الأرجل، تذرع سطح الطاولة جيئة وذهابًا. وقع خطواتها يعزف لحنًا مألوفًا لي. يدخل أذني، ليصل ببطء حتى ثنايا دماغي. النملة البيضاء صبورة. تقرض روحي وتؤلمني، وتمزق عروق دماغي بأسنانها الحادة. تثق بالليل الطويل. يبدأ شعوري بالتعب يتلاشى شيئًا فشيئًا، مع تنقّل النملة في رأسي متكتكة كساعة، مع تقدّم الليل. لا أتمكن من النوم ثانية. من يستطيع النوم مع ضجيج الشارع الذي يعلو حينًا وينخفض حينًا آخر؟ حين تشتدّ الأصوات، أنهض من السرير، وأذهب لأنظر من النافذة. عدد من الصبية اجتمعوا جوار أكوام القمامة، يدورون في حلقة دائرية ويلعبون. وسط الحلقة، صبي طويل القامة يحمل قطة من ذيلها، ويؤرجحها ذات اليمين وذات اليسار. الصبية الآخرون يدورون حول القطة مثل طقوس الطوطم ويلهون. أرى الصبي حافي القدمين الذي التقيته عند الساعاتي بين الصبية. يضحك بصوت مرتفع، وينخس القطة بإصبعه من حين إلى آخر. لا تبدو مظاهر الحياة على القطة. أنظر إلى نوافذ البنايات في الجهة المقابلة. لا أحد يخرج إلى النافذة أو يرفع ستارتها. لا أحد يبالي، لا بالضجيج ولا بالصبية ولا بالقطة. يعيشون بين جدرانهم، مثلي. ربما يصغون إلى ساعات اشتروها حديثًا، ينظرون تحت السجاجيد، يرفعون الأرائك والخزائن، ويبحثون عن شيء لا يعرفون ما هو. في البيت حياة، وفي الخارج حياة أخرى. الأطفال يستمتعون باللعب في الشارع. حين ينتهي لعبهم ولهوهم، يلقون بالقطة بين أكوام القمامة. يبتعدون دون أن يفكروا بالاستدارة وإلقاء نظرة أخيرة على القطة. الليل بالنسبة لهم، قد بدأ للتو. يشبكون أذرعهم بعضها ببعض، ويغيبون في الظلام. القطة الملقاة على كوم القمامة، تبدأ بالانزلاق شيئًا فشيئًا، على كيس قمامة حيث ألقيت. يسقط جسد القطة الهزيل حتى أسفل الجدار

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المجاور. بينما كان جسد القطة ينزلق، ارتجفَ للحظة، أو ربما هذا ما خُيّل إليّ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جدرانه أقيمت من الطوب وسقفه من الأوهام

10

حين لا تجدي الأدوية نفعًا، في ليلة حُشرت خلف الستارة التولية لغرفة النوم، تتحوّل الغرفة رويدًا رويدًا إلى بئر مفزعة وقطرانية ولا قرار لها كوادي الغيّ. لو صاح بوراتين فلن يتجاوز صوته الستارة التولية، ولو أصاخ السمع، فلن يسمع أي صوت في الخارج، ولا حتى أدنى خشخشة. هذه الليلة دامسة كالليالي الماضية. ضوء القمر لم يدخل الغرفة في الليالي الماضية أيضًا. يمضي بوراتين ساعات طويلة، محاولًا طرد فكرة تناول جرعة كبيرة من الأدوية المنومة والمسكنة للألم خشية أن تودي به إلى الانتحار ثانية، بيد أنه يعتقد أن معرفة كنه الحياة والدافع وراء التخلي عنها قد يودي به إلى الانتحار ثانية أيضًا. السقف هذه الليلة، أكثر انخفاضًا من الأوقات الأخرى. لا هواء في الغرفة. يلقي بوراتين باللحاف إلى الأرض. يبسط ذراعيه وساقيه على مدى السرير. أيّ الأيام الآن؟ أو بالأحرى، أيّ الليالي؟ ربما ينبغي الخروج من البيت، ومحاولة النوم في غرفة لأحد الفنادق. كان ينبغي القيام بذلك قبل ساعات. بينما الظلام مثل سُكّر مذاب يلتصق منتشرًا في كل مكان، على الجدران والستارة وحتى غطاء السرير، لا يبدو أمامه بارقة أمل ولا حتى بنور ضئيل. يطبق جفنيه ويفتحهما بألم. يغرز أظافره في راحته. ليلة أخرى تمضي بالهزيمة. في الخارج، أو إذا كان ما يُدعى بالشارع لا يزال في مكانه، فقد يتجوّل المتسولون والمومسات واللصوص، لكن لا أحد منهم يعلم أن هنا في هذه الغرفة، يقبع من يعيش خيبة أمل. صداع في الرأس يُضاف إلى الأرق. بما أن بوراتين عازم على عدم تناول أية أدوية إضافية، قد يذهب إلى المطبخ، ويعدّ لنفسه فنجانًا من القهوة. يحمل فنجان القهوة

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

والبخار يتصاعد منه، ويذهب إلى الصالة؛ وقد يأخذ أحد الكتب الذي سبق أن حاول قراءته لأيام عدة، فلم يفلح بقراءة أكثر من صفحتين منه. قد يهيئ لنفسه مجلسًا مريحًا على الأريكة، يتنفس بعمق، ويفتح الكتاب. ليست الكلمات أو الحكايات ما يرهقه، بل الأحرف والفاصلات وبدايات الأسطر ونهاياتها. ما يشوّش ذهنه، ما يراه هنا وهناك من أحرف (ج) غريبة و(ف) ضخمة، وفاصلات منقوطة. حين يحاول أن يربط ما بين الجمل، تتكدّس الأحرف فوق بعضها، وتشكّل أكوامًا من الأحرف. يعيد القراءة. قراءة صفحة واحدة تستغرقه ساعة من الوقت. كل حرف يحتاج إلى ثانية من الوقت. يقاس تقدّمه في القراءة بالميليمترات. يتوقّف عند نهاية الصفحة الثانية. ينظر إلى الجدران، كأنه متمدد في الفراش، وينظر إلى السقف بعينين متقدتين إلى الفراغ. كان هناك في الماضي "بوراتين" آخر يختلف عن بوراتين الحالي حسبما يروي الجميع. "بوراتين" ذلك، ما كان ينظر مثلما ينظر الآن، لا يرى الدنيا بعينيه بل يسمعها بأذنيه. يفكّر بالأغاني، يتكلم بالأغاني. أين ذهب ذلك الرجل، مغني "البلوز" الذي يذكره الجميع بكلمات الإطراء؟ كان يصّور فوضوية الدنيا وهمجيتها بصوته المبدع، كالفنان ينحت التماثيلِ من الرخام. كان يضع الألحان، يكتب الكلمات، ويغني الأغنية. كان يفهم الدنيا بأذنيه مثلما يفهم النحات الدنيا بيديه. يماثل الروائح بالأصوات، والأطعمة بالألحان، والكتب بالأغنيات. الحس يقوده في بحثه عن الدنيا الجديدة بصوت يشوبه القليل من الحزن والفرح، كرقّ في عروقه غبار الحقول، كزنجي لا تزال ذاكرته تحمل آلامه الماضية. يرى في إسطنبول حزنًا وفرحًا مجتمعين. ذلك الرجل، لا يتراجع عن قراره مهما يواجه من عقبات. هو الآن، يشعر بالغثيان. حرارة تنتشر من معدته حتى بلعومه. يضع يده على صدره ممسدًا. مصدر الغثيان الآن، حيث يولد صوته عند الغناء. ربما كان يجد نفسه في موسيقى "البلوز" فقط، لا في إسطنبول ولا في الدنيا، يصوغ نفسه في الألحان. ينحت لروحه روحًا، كما ينحت الفنان تمثالًا لنفسه

من الرخام، إلى أن غفا ذات ليلة وصحا في الظلام، فزلّ إزميل روحه وتصدّع الرخام. بدأ الصَّدْع من مكان غير مرئي في رأسه، وامتدّ حتى وصل إلى ضلعه. تسلّلت أغانيه عبر الصدع واختفت. لم يبقَ له سوى رائحة تنتشر من معدته حتى تجويفه الأنفي. يشعر برغبة بالتقيؤ. ما عاد يمكنه ضبط نفسه. يضيء الأنوار، ويذهب إلى الحمام. يحني رأسه داخل حوض الغسيل. ينتظر. يداه مرتكزتان على حافتيّ الحوض. ينظر إلى قطرات الماء في قعر الحوض، إلى اللون الصدئ في تجاويفه، إلى القذارة في أثلامه. متى تم تنظيفه آخر مرة؟ يشتم رائحة قادمة من فتحة تصريف الحوض. تلك الرائحة كتلك التي تنبعث من معدته. يحاول التقيؤ. لا شيء يخرج من حلقه. يحاول ثانية. لا يفلح. تدمع عيناه وتتراخى أصابعه. تتراجع الحرارة والرائحة في تجويفه الأنفي إلى معدته. يبصق الطعم الحامض من فمه، وينتصب. يخلع الجزء العلوي من منامته. يتلمّس بطنه العاري. ينظر إلى بطنه، كأنه يسعى لرؤية ما في معدته. يتعرّى تمامًا. يرتعش جسده. يخطو خطوتين على الأرضية الباردة للحمام، ويدخل حجيرة الاستحمام. يترك باب الحجيرة مفتوحًا. يشعر بالتعب يسري في كل أجزاء جسمه مع انسياب الماء الساخن من شعره إلى كتفيه، ومن وسطه إلى فخذيه. يمدّ يديه ويفتح كفيه متلاصقتين، ويملأهما بالماء ثم يبسط أصابعه فيسيل الماء من بينها. يضم أصابعه ثانية ثم يبسطها. يكرّر ذلك عدة مرات، دون أن يعدّها. يدعك رأسه. يمرّر أطراف أصابعه على جبينه وصدغيه. عندما يسري الدفء حتى عظامه، تسترخي عضلاته المتوتّرة وشعيراته الدموية. يقف بلا حراك تحت الماء المنهمر من المِرشّة. عيناه مغمضتان. يشعر برغبة بالنوم على هذه الحال. يرخي كتفيه. حين يفتح عينيه بعد فترة، تصطدم نظراته بجدار الحمام. يرى جسده العاري في المرآة الطولية. البخار يغمره. ينظر إلى المرآة كأنه يرى فيها شخصًا لا يعرفه. يخرج رأسه من الماء المنهمر لعلّه يرى بوضوح أكثر. ذراعان ممتدان في المرآة. فخذان متوتّران. يدان حائرتان

لا تعرف ماذا تفعل، ووجه. وجه آخر خلفه. إن يناديه سيسمعه، إن يتكلم سيجيبه. وجه غامض وبائس، لا يعرف من أين جاء، ولا كيف دخل في المرآة. يشعر بوراتين بالضياع. يغلق أذنيه بكفيه. يشرع بالبكاء تحت هدير الماء المنهمر بشدّة. كان يحاول ضبط مشاعره قبل قليل، وحين يدرك أنه لن يفلح، يترك العنان لدموعه بالانهمار. يشعر بعدم قدرته على فعل أي شيء. يشعر بعجزه. غدًا سيشعر بالعجز ذاته أيضًا، واليوم الذي يليه أيضًا. ينهار على الأرض خوفًا من قبوله لذلك كأمر واقع. ينحب. يتوسل إلى نفسه. لا أحد يتوسل إليه سوى نفسه. لتنتهِ تلك المعاناة. الوجه في المرآة! ليخرج هذا الوجه من المرآة، إذ لا أحد قادر على مساعدته سواه، ليلفّه في البخار ويرقده لينام، وقد يصلح ما في عقله من اضطراب. يشعر بعجزه عن النهوض حيث وقع، كي يذهب إلى غرفة النوم، ويبقى مع نفسه وحيدًا. لا يعرف ولا يريد أن يعرف ما فعله حتى استحق هذه القسوة الغامضة للحياة. إن كان هناك من أكاذيب ستشفيه، لا يرى حرجًا من الاقتناع بها، والتعايش معها. لكل امرئ حكايته، لكنّ حكايته الخاصة مفقودة. ينبغي عليه إما أن يجدها، أو أن يكتب حكاية أخرى لنفسه. ينبغي عليه أن يصدّق حكايته الجديدة التي سيكتبها بنفسه أولًا، وقبل الآخرين. ينبغي عليه أن يبرأ من صداع رأسه. بخار الماء يغمر أرجاء الحمام. تختفي المرآة على الجدار المواجه في غياهب البخار. يرغب بوراتين بالبقاء هنا إلى الأبد. ما سر البكاء؟ يشعر في آن واحد، بخفقان شديد لقلبه وباسترخاء مريح في جسمه لم يشعر به قط. يعرف أن لا ذاتًا داخل جسده، فبوراتين بلا ذات، لكنه يظن أن هناك احتمال آخر: قد يكون أي ذات. إن كان بلا ذات، فلِمَ لا يتملّك الذات التي يريد. قد يختار ذاتًا لجسده كما يشاء. تبث هذه الفكرة في نفسه خوفًا جديدًا بدلًا من الطمأنينة. يبكي بحرارة. تسيل دموعه المختلطة بالماء وتختفي في مصرف مياه الحمام. يشعر بوراتين بأنه لا يمتلك دموعه أو بمعنى آخر، لا يمتلك ذاته أيضًا. شخصيات لا نهائية في داخله. لا يجد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في أي منها ما يكشف عن شخصيته الماضية. يعتقد باحتمال جديد كل دقيقة، ويشك بصحة ذلك الاحتمال في الدقيقة نفسها. لا جدوى من البكاء أيضًا. يشرع بالتقيؤ. يتكئ على يديه على الأرض ويتقيأ قيئًا أصفر اللون وأخضر. يتقلّص جوفه ويفرغ ما بداخله. لا يرى حوله شيئًا سوى البخار. يعرف أن هناك مرآة بين البخار، وفي المرآة شخص راكع على قدميه. يرى على أرض الحمام قارورة صابون لغسل الشعر، يلتقطها ويقذف بها. يتردّد في أذنيه صوت ارتطام خفيف. صوت الارتطام ليس سوى أكذوبة، كذاته في المرآة. هذا البيت ليس سوى أكذوبة. الجسر والبحر أكذوبة. البقال والساعاتي يكذبان. بيك والطبيبة يكذبان. أهناك من لا يكذب؟ تخطر أخته على باله. لا مؤشر للكذب في صوتها. ربما يفهم أخته من صوتها، لأنه لا يرى وجهها، ولا يتتبع معالمها. يصدّق تلك البراءة في ذلك الصوت. لو يتصل بها في هذه الساعة، سيصدّق ما تقوله ثانية. ينتظر حتى يزول فواقه. ينهض على قدميه. يعاود الوقوف تحت الماء الدافئ للمرة الأخيرة. يخرج ويتناول منشفة. يعبر إلى الصالة بخطوات سريعة. يجد دفتر أرقام الهواتف بين دفاتر أخرى في درج المنضدة. يقلّب الصفحات بأصابعه المبللة. يقلب الصفحات تارة نحو اليمين ونحو اليسار تارة أخرى. يأمل أن يجد اسمًا يعرفه. يتذكّر أنه قد انتابه هذا الشعور بالأمل مرات عدة، وفي كل مرة، كان يغلق الدفتر بخيبة أمل. يغلقه ثانية. يمرّر نظره على الأسماء بالترتيب على الغلاف الأخير. يتوقّف حين يرى رقم هاتف كُتب بخط عريض. لا اسم مكتوب أمامه، لكنه رقم هاتف أخته، هذا ما قاله بيك. يتناول الهاتف ويدير قرص الأرقام. كل رقم يمر من الهاتف عبر سلك يمتد من داخل الحائط إلى باطن الأرض الرطبة للمدينة، ويجد طريقه بين آلاف أرقام الهواتف، ليصل إلى الهاتف المطلوب في الطرف الآخر. يرن الهاتف. يعرف بوراتين ما الذي سيقوله لأخته. ساعديني، سيقول. أنا مريض جدًا، سيقول. لا أعرف لماذا بليت بهذا المرض، سيقول. سآتي إليك في قطار الليل، يا أختي. سأذهب إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

محطة حيدر باشا للقطارات، سأقف في طابور التذاكر، سأطلب من بائع التذاكر مقعدًا إلى جوار النافذة. حين ينطلق القطار، سأسند رأسي على زجاج النافذة، وسأغرق بالأفكار على صوت عجلات القطار، صوتًا ربما أتذكره من فيلم سينمائي شاهدته أو قرأت عنه في إحدى الروايات. بينما تدور العجلات الحديدية على السكة الحديدية، سأغمض عينيّ، وأنام حتى الصباح. سأصل إلى البيت بشوق لا أدرك كنهه. البيت سيضمّني إليه. بيتٌ جدرانه أقيمت من الطوب وسقفه من الأوهام. سيدعوني البيت بحرفه الأول للدخول، ويعبر بي بحرفه الثاني من ردهةٍ عُلّقت على جدرانها صورٌ بهتت ألوانها ثم يوصلني إلى غرفة معتمة، ويرقدني على سرير استُبدل غطاؤه حديثًا. ستجلس أختي إلى جوار الحرف الثالث، وتروي لي عن طفولتي. سأغرق في النوم بينما أصغي إليها. وفي تلك الأثناء، سيرنّ الهاتف بإلحاح. نسمة طلّة في الخارج، ونجمة باهتة في السماء. كل امرئ يربط عُقدة لحياته ويحلّها. لا أحد يبالي بالهاتف. يضع بوراتين سمّاعة الهاتف في مكانها. يلاحظ أن الدموع لا تزال تسيل من عينيه بصمت. ينتظر انتظام تنفّسه. يمسح دموعه بظهر كفه. يجلس على الأريكة. يضع الهاتف في حضنه. يدير قرصِ الهاتف ثانية بأصابع مرتعشة. يصدر من الهاتف رنّة صبورة هذه المرة، ثم يتبعها برنة ثانية. بعد الرنة الثالثة، تُرفع سماعة الطرف الآخر. يسمع صوت امرأة ناعسة. هذه ليست أخته. امرأة أصغر سنًا. ألو، ألو، تقول المرأة على الهاتف. يعلن صوتها المخنوق عن رغبتها بالعودة إلى النوم في الحال. يحار بوراتين بما ينبغي قوله. يتوقّف ذهنه عن التفكير. لا يفكّر بأي شيء حتى ولا بإغلاق الهاتف. يحاول إدراك سبب مجيئه إلى الصالة، وما الذي يفعله هنا. ينظر إلى حالته. عارٍ. منشفة حول وسطه. هاتف لونه أحمر وأسود على ركبتيه. سماعة الهاتف على أذنه. ألو، يقول الصوت من الطرف الآخر. ألو، من أنت؟ من أنا؟ أنا بوراتين، لكن لا معنى لقولي هذا، لأن بوراتين، اسم لا يجيب على الأسئلة. بوراتين مجرد كلمة لا تحمل أي معنى. ألو،

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ألو، من أنت؟ أُدعى بوراتين، أرَوْني بطاقتي الشخصية كي أصدّق أني بوراتين. يظنون أني سأعرف نفسي إن رأيت في بطاقتي الشخصية اسم أمي واسم أبي وتاريخ ولادتي ومكان ولادتي، مع أنني لا أريد معرفة من أنا، بل ماذا أكون. أنا، ماذا أكون؟ لا أحد يقول لي.

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

11

تقع حانة ثيودورا في زقاق لا تدخله المركبات، وسط مطاعم اصطفّت جنبًا إلى جنب. كان بوراتين وأصدقاؤه يرتادونها للجلوس في الهواء الطلق إلى طاولاتها الممتدة على الرصيف وازدحامها بالرواد أيضًا. يحاول بوراتين الاستجابة لاهتمام أصدقائه حيث يجلسون إلى طاولة طويلة مُدّت بتشكيلة واسعة من أطباق المقبلات وغيرها من أصناف الطعام. ما رأيك بطعم الحمص يا بوراتين؟ هناك ضجيج، أتريد الجلوس في تلك الناحية يا بوراتين؟ أتريد قطعة ثلج أخرى في قدح العرق يا بوراتين؟ يختار بوراتين شرب العرق بدلًا من شرب النبيذ، أسوة ببيك، مثل نصف المسامرين الآخرين. "هيالا" الجالسة مقابله، تفضّل، تقول، وترفع قدحها. يشاركهما كل الجالسين إلى الطاولة. يتلاشى شعوره بالقلق في وقت قصير، بفضل الأقداح التي تُفرغ وتُملأ. أطباق المقبلات، تفرغ وتُستبدل بغيرها بلا انقطاع. بوراتين، من جهة، يحاول الربط بين أسماء أصدقائه ووجوههم ويسجلها في ذهنه، ومن جهة أخرى، يحاول متابعة حديث بيك المتنقّل من موضوع إلى آخر. الجمال أكثر جاذبية من الخلق الحسن، يقول بيك مشيرًا إلى مَجموعة من النساء يجلسن إلى الطاولة في الزاوية. (يلتفت الجميع نحو الشابات اللاتي يشربن بنشوة.) يسأل بيك، أيهن تجلب نظرك يا بوراتين، المرأة ذات السلوك المتزن الجالسة في الوسط، أم تلك الجميلة إلى جانبها؟ (يبدو أن الأخريات يُظهرن الاحترام للمرأة في الوسط. امرأة تجذب الانتباه بحديثها، أما المرأة الجالسة إلى يمينها فتجلب الانتباه بجمال وجهها.) لا تقولوا لي إن الجمال عابر. الخلق الحسن قد يكون عابرًا أيضًا. الخلق الحسن ينتظر المقابلة بالمثل، وله حدود. أليس للجمال حدود أيضًا؟ (بينما يتناول بيك جرعة من العرق وقطعة من الجبن، ينتهز الفرصة ليدقق أكثر بعينيَ المرأة وأنفها وشفتيها.) الجمال لا ينتظر جزاء، ولا يرجو منفعة. حقيقة

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

واضحة للعين. (حول عنق المرأة قلادة أنيقة. إحدى حمّالتي فستانها قد انزلقت عن كتفها. في يدها قدح من النبيذ. تستمع إلى المرأة إلى جانبها، وابتسامة مشرقة على وجهها تضاعف من جماله.) أقول ذلك متعشّمًا برحابة صدر صديقاتنا الجالسات إلى طاولتنا، يقول بيك. (ستة رجال وأربع نساء إلى الطاولة.) لا تقلق يا بيك، لسنا في مسابقة للجمال مع تلك المرأة، تقول "هيالا". على أية حال، لقد جلبت انتباهنا نحن النساء هنا قبلك يا بيك، وتهامسنا حولها. لا أحد يضاهيها جمالًا في مساء هذه الحانة سوى بوراتين لو كان فتاة. (يتصرّفن مع بوراتين مثلما في الأيام الماضية. هو أيضًا، يحاول مجاراتهن بعفويتهن.) يسأل بيك، لو تنهار الشرفة فوق تلك الطاولة على رؤوس تلك النسوة، أي منهن تحزنون عليها أكثر، لا تقولوا نحزن عليهن كلهن. لا تسرعوا بالإجابة، فأنتم معشر الموسيقيين، تضمرون ما لا تفصحون به. هيا أخبروني بصراحة! (من الواضح أن المجتمعين على تلك المائدة، يطرحون بصراحة ما يشاؤون من مواضيع وما يخطر ببالهم، يتحاورون حولها ويتناقشون.) تُرفع الأقداح ثانية. يأخذ بوراتين حذره، ويتناول جرعة صغيرة من قدحه. عندما دخل هذا الزقاق عند الغروب، ما كان يتذكّر حيويّته وازدحامه، ولا أنه سبق أن جاء إلى حانة ثيودورا، فظن حينذاك، أنه سيشعر بالضيق في هذه الأمسية. لكنه لا يشعر بالضيق الآن، رغم مرور أكثر من ساعتين، بل لا يشعر بأي شيء.

لاحظ بوراتين أن الجميع يخاطب صديقه الجالس إلى يمينه بـ"الأفندي". سأشتري سجائر وأعود، أتريد الذهاب معي؟ يسأله الأفندي. ينظر بوراتين إلى بيك، كطفل لا يعرف ما ينبغي أن يجيب. لا بأس، تتعرف على هذا الحي، يقول بيك. ينهضان عن الطاولة. يمشيان حتى نهاية الزقاق. بدا له أنهما معروفان في هذا الزقاق. يردّان بإيماءة من رأسيهما على سلام المارين يمينًا ويسارًا. حين ينعطفان عند الناصية

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويلجان في الجادة، ينجوان من أعين المعارف. زحام شديد في الجادة. تعج بالشباب. متوهجة بالأنوار. حال تبعث على السكينة أن يغيب المرء هنا بين الشباب والأنوار. لا يتوقفان عند بائعي السجائر كما ادعى الأفندي. يبدو أنهما سيتابعان سيرهما حتى نهاية الجادة، مهما بعدت. كأنهما جاءا إلى هذه الطريق سابقًا، مرات عدّة. بعد تجاوزهما لواجهات زجاجية كبيرة لمتاجر ومحلات مختلفة، يلجان نفق مشاة قديم، مقفر ورطب. يقفان أمام لوحة لملصقات دعائية لأفلام سينمائية. يلقيان نظرة على الملصقات، كلّ ينتظر الآخر للشروع بالكلام. يقطع الأفندي الصمت ويقول، عمر عقل الإنسان شيء، وعمر عاطفته شيء آخر؛ حين يتطور أحدهما، قد يتراجع الآخر. مثلًا: أعمار عقول أصدقائنا إلى المائدة راشدة، لكن عواطف معظمهم لا تزال فتية. لا أحد سواك من استطاع أن يظهر توافقًا مثاليًا بين عمر العقل وعمر العاطفة. ماذا جرى لك، يا بوراتين؟ أطلق المشروب العنان للسان بوراتين فلا يتردد عن بوح ما يجول في رأسه، ويقول، تتحدث عن شخص لا أعرفه، أنت من تتذكّره، وليس أنا. لا تسألني عنه بل أنا أسالك عنه. قل لي، ماذا جرى له؟ يمدّ الأفندي يده ويمسك بوراتين من معصمه. يقبض عليه بشدة. يحدّق في عينيه للحظات، ويسأل، ألا تتذكّر ذلك أيضًا يا بوراتين؟ ما الذي لا أفهمه، وما الذي لا أتذكّره؟ بوراتين، ألا تتذكّر أننا جئنا إلى هذا النفق قبل ما يقرب من عام، ووقفنا أمام لوحة الملصقات هذه، وحين أخبرتك برغبتي بالانتحار شددت على معصمي كما أفعل الآن، أنسيت ذلك؟ ينظر بوراتين بشرود. يدرك أول مرة، أن غيره أيضًا يرغب بالانتحار. يستأنف الأفندي كلامه، كنت دائمًا محظوظًا، حسن طالعك ساعدك ثانية. عشرات الأشخاص يلقون بأنفسهم من جسر البوسفور سنويًا، فيتحطمون كقطعة خرسانية أُلقيت من أعلى البرج. حتى هذا اليوم، عدد من نجا منهم من الموت لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، لكنهم جميعًا، أصيبوا بعاهات مستديمة، في حين أنك نجوت من الموت وبكسر في ضلع واحدة

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

وفقدان للذاكرة فقط. عقدة في ذهنك لا يدركها أحد منا. لقد تخلّصت من هذه العقدة بالنسيان، لا بالموت. كنت أغبطك يا بوراتين، في الماضي على تمتعك بالوسامة والموهبة وحب الجميع لك. لكنني الآن لا أغبطك على أي منها، بل على فقدانك لذاكرتك. لماذا تسعى لاستعادة ماضيك؟ دعك منه، لتبقَ تلك العقدة مدفونة هناك. تنبش أحداثًا وقعت قبل مئات بل آلاف السنين، وتظن أنك تحيا بعضها الآن. لا تذهب بعيدًا في الماضي، ودعني أقصّ عليك ما حدث تلك الليلة من العام الماضي؛ بعد أن شربنا في حانة ثيودورا، جئنا معًا إلى هنا. كنت ثملًا جدًا، ففضفضت لك عما يجول في رأسي هنا، أمام هذه الملصقات، وأخبرتك أني قد عزمت على الانتحار. اصطحبتني إلى البيت. غسلت وجهي، وأرقدتني في الفراش، وبقيت إلى جانبي. لم تبرح جانبي لأيام عديدة. تناولت طعامك معي، وعزفت على جيتارك معي. وضعت إحدى أجمل ألحانك في ذلك الوقت. منذ ذلك الحين، ابتعدت رغبة الموت عني شيئًا فشيئًا، ولم تعد سوى كلمة تذكر في الأغاني رغم أن الموت كان يلاحقني قبل ذلك، في كل مكان. كان يحفّزني لإلقاء نفسي حين أكون في الشرفة، ويدعوني إلى البحر في الأيام العاصفة، ويشير لي إلى السكين حين أدخل المطبخ. كان يوقظني من نومي في الليل على رائحة الأدوية في الخزانة. كنت أضبط نفسي بصعوبة. أخبرتك في ذلك الوقت، عن سبب رغبتي بالانتحار، لكنني لن أخبرك الآن. ما دمت قد نسيت الماضي، فانسَ سبب رغبتي بالانتحار أيضًا. عدت إلى الحياة بفضلك، وأدركت أن التفكير بالموت دلالة على الضعف، مع أني كنت أظن أن الانتحار عمل بطولي. قبل ألفي عام، كان يُشهّر بالجنود المنتحرين بصلب جثثهم، وتُجر جثث النساء بالحبل الذي شنقن به أنفسهن ثم تغير الزمان، وأصبح الانتحار رمزًا للكبرياء، وألبس بهالة من الخلود، خاصة بين الموسيقيين والكتّاب. حين يُعدّ الموت فاجعة، يُمنح الانتحار منزلة من الجلال. لكن ذلك الزمان قد ولّى أيضًا. لم يعد في الحياة من شيء يؤسف عليه. فقد

الموت معناه، وأصبح الانتحار هزليًا. لقد وصلت حتى ذلك الحد، رأيت الحقيقة ثم عدت إلى الحياة. حين بحثت عن فكرة الانتحار، أدركت أنها كانت متجذّرة في الماضي. أنت تخلّصت من ماضيك يا بوراتين، تحرّرت بفقدانك لذاكرتك. معجزة لم ينلها أحد... بينما يتحدث الأفندي بحرارة، يتراجع بوراتين خطوة إلى الوراء. يحرّر معصمه من أصابع الأفندي المتراخية. يشعر بخدر في معصمه، فيمسّده بيده. ألن نشتري سجائر، يسأل. يتوقّف الأفندي متردّدًا، ويلتقط أنفاسه. بعد تردّد قصير ينفجر ضاحكًا. يتردّد صدى صوته في النفق، ويقول، بالتأكيد، سنشتري السجائر. سيُشعل كل منّا سيجارة، في طريق العودة إلى الحانة. يخرجان من النفق. يلجان في أمواج زحام الجادة. يشتريان السجائر من أول بائع للسجائر عند الناصية. يشعل كل منهما سيجارة، ويصلان حتى زقاق الحانة، دون أن يتحدثا. يجلسان مع أصدقائهما. تُرفع الأقداح مع عودتهما، ويتجرّع كلٌّ مشروبه. يقول الأفندي ردًا على سؤال بيك عن ماذا فعلا، روى بوراتين لي، حكاية جميلة. أحقًا؟ أجل. الحكاية تقول إن شابًا قد ضلّ طريقه في الغابة، يلتقي برجل مسن، بعد عدة أيام قضاها في الغابة على غير هدى. الرجل المسن قد ضل طريقه في تلك الغابة منذ وقت طويل جدًا. يقترح الرجل المسن على الشاب أن يترافقا ويبحثا معًا عن طريق الخروج، فيقول الشاب، مستحيل، لن أرافقك. لن أهدر وقتي معك. لو عرفت طريق الخروج لما بقيت في الغابة حتى الآن. لكنني قد عرفت كل الطرق غير النافذة، يجيبه الرجل المسن. هكذا كانت الحكاية، أليس كذلك يا بوراتين؟ ينظر بوراتين بعينين تائهتين. يتناول جرعة كبيرة من العرق. يستدير نحو الطاولة ويغمس قطعة خبز في المقبلات في طبقه. حين يخيّم الصمت على الطاولة يرفع بيك قدحه ويقول، هيا، لنشرب نخب حكاية بوراتين.

ينظر بوراتين إلى طاولة النساء في الزاوية. يتذكر المرأة الجميلة.

(المرأة، تتحدث عن شيء ما. تحرك أصابعها الدقيقة في الهواء بحركات رشيقة.) لقد رأى بوراتين هذه المرأة في جادة "يوكسك كالديريم" حين دخلت متجر الكتب القديمة. كان برفقتها شاب. كانا متشابهين جدًا، كتوأمين. كان الأخ وأخته يدققان في كتاب قديم في متجر الكتب. (المرأة تدرّس في الجامعة. تتحدث إلى صديقاتها عن محاضرة لها حول مخطوطة مهمة. تتحدث بدرجة عالية من الحماس حتى وصل صوتها إلى بوراتين الذي يسترق السمع إليها من بعيد. تشتكي أن طلابها لم يبدوا أي اهتمام بهذا الكتاب القديم والنادر. تضحك المرأة إلى جانبها، وتقول، لم ينظروا إلى الكتاب لأن نظرهم كان مُعلّقًا بك.) لم يشدّ جمال المرأة بوراتين حين رآها في الشارع، بل الكتاب الذي كان بين يديها وأخيها في متجر الكتب القديمة. لقد راقبهما لفترة منَ الوقت كي يفهم لِمَ يسعى الناس لنبش الماضي جاهدين. (يعرف المرأة الآن، من حركات شفتيها أثناء حديثها، لا من جمالها.) أين شردت يا بوراتين، هل أنت بخير؟ يقول بيك. لا بأس، لكن إن تابعت الشرب مثلك، سيزوغ بصري. ألم يزغ بصرك بعد؟ عيناك لا تحيدان عن تلك المرأة منذ فترة، يقول بيك. (تسند المرأة مرفقيها إلى الطِاولة، وتتابع حديثها.) بيك، أنا أعرف تلك المرأة. ابتسامة تغمر وجه بيك ويقول، الجمال يفتح حتى أقفال الذهن. ليس كما تظن يا بوراتين، حين خرجنا معًا أول يوم، رأيتها حين كنا متجهين نحو برج غلاطة. لا أظن ذلك يا بوراتين، بل تعرفها منذ زمن بعيد، لكن الزمن اختلط عليك. ألم تقل إنك تخلط الأزمان ببعضها؟ اسمعني يا بيك، لقد رأيت تلك المرأة حين دخلت متجر الكتب القديمة. لقد سمعت المرأة تتحدث إلى صديقاتها قبل قليل، عن أحد الكتب القديمة النادرة هناك. (لا يعير معظم الطلاب اهتمامًا للاكتشافات الجديدة، تقول المرأة.) يضحك بيك ويقول، أنت ثمل. بل أنت الثمل، يجيب بوراتين. لا أرى حرجًا إن ثملت، أتقبل ثملي عن طيب خاطر، تقبّله أنت أيضًا يا بوراتين. حسنًا يا بيك، أتقبّله. لقد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بدأ رأسي يدور قليلًا، لكنني لم أسكر بعد. لنتابع الشرب إذن، يقول بيك. يتجرعون مشروبهم. يشترك الجميع بالنظر إلى المرأة. يتابع بوراتين الأحرف والكلمات المنزلقة بين شفتي المرأة؛ أما بيك، فكان يرى أطيافًا لطيور مجنّحة تنزلق من شفتيها الورديتين. يطلق نفسًا عميقًا من داخله. هل رأيت المرأة وحدها من قبل، يسأل. كلا، كان أخوها معها، توأمها. هل قلت توأمها؟ يقول بيك ويتابع، أقصد أواثق من ذلك إلى هذه الدرجة؟ سأتحقق من صحة ذلك وأعود. كيف ستتحقق من ذلك؟ سترى، يقول بيك. ينهض مستعينًا بإسناد يديه إلى الطاولة. يمشي بخطوات متعثرة، ويمر بين الزحام مترنحًا، إلى أن يصل إلى الطاولة في الزاوية. يحيي النساء. ترد النساء على حركات يده الحميمة بالابتسام. يطلبن منه الجلوس. يشكرهن بيك. يشير للمرأة إلى بوراتين. يقول لها شيئًا ما بصوت خفيض. تنظر المرأة الجميلة إلى بوراتين وتحدق صامتة لفترة وجيزة. ثم تميل نحو بيك وتقول شيئًا ما. تعاود النظر إلى بيك. لا تعابير ابتسام أو استياء على وجهها. يغادر بيك طاولتهن. يعود بالترنح نفسه. بينما يجلس إلى مكانه ثانية، تتردّد أنفاسه بعمق. يغمض عينيه. أتحققت ممّا قلته؟ يسأل بوراتين. يفتح بيك عينيه وينظر حوله بشرود. لِمَ لا نشرب، يقول كأنه يكلم نفسه. يمد يده نحو الطاولة. يبعد بوراتين القدح الذي أمامه. كفاك شربًا هذا المساء، من الأفضل أن نغادر، يقول. لقد بدأنا للتو، يقول بيك. كلا، لقد أطلنا الجلوس، يقول بوراتين. يأخذ معطفه المعلق على الكرسي ويضعه على ظهره. في تلك الأثناء، يخاطب الأفندي الجالسين قائلًا، يا أصدقاء، ليصطحب أحدكم بيك إلى بيته، وأنا سأصطحب بوراتين. لا داعي لذلك. أذهب وحدي، من الأنسب أن تصطحب بيك، يقول بوراتين. أواثق من ذلك يا بوراتين، أتستطيع الذهاب وحدك؟ أجل، أنا بخير. ينهض البعض معهما، بينما يظل الآخرون جالسين لمتابعة سهرتهم. حين يقول بوراتين، طابت أوقاتكم، يقع معطفه عن كتفه. ينحني نحو الأرض كي يلتقط المعطف. غشيت عيناه. يسند إحدى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ركبتيه على الأرض. لا يستطيع النهوض من دوار أصابه. يتمسك بالطاولة بإحدى يديه. تسرع هيالا وتمسكه من ذراعه. تساعده على النهوض. هل أنت بخير، تقول. أجل، أظن ذلك. سأصطحبك إلى البيت يا بوراتين، لن تتمكن من الذهاب وحدك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

12

تعود هيالا من المطبخ حاملة كوبين من القهوة. تجلس على الأريكة إلى جانبي. القهوة ستنشّطك، تقول. أرتشف رشفة من القهوة. أشكرها. لم أدرك أني قد أفرطت بالشرب في الحانة. بينما كنت أستمع إلى حديث أصدقائي وأتابعهم، كنت آكل وأشرب بلا وعي. ظننت أني سأتمكن من العودة وحدي إلى البيت. غشيت عيناي فجأة. لقد انسقت مع بيك في نهاية الأمر، تقول هيالا، وقرعت الأقداح معه، بلا توقف. كيف تشعر الآن؟ أراحتني العودة إلى البيت. زال دوار رأسي. ربما دار رأسي من الزحام أيضًا. لقد أرهقني التحدث مع هذا العدد من الأشخاص في الوقت نفسه، ومتابعتي النظر إلى وجوههم، ومحاولتي للربط بين أصواتهم ووجوههم، ثم حفظ كل هذه المعلومات في ذهني. هل كان ذلك يرهقني في الماضي؟ كلا يا بوراتين، لم تكن كذلك في الماضي. لم تكن تعاني من أي شيء، أو لم أسمع بذلك. كنت اجتماعيًا ومنفتحًا. هيالا، لا يمكنني فتح حوار سوى مع شخص واحد في وقت واحد. يرهقني الحديث مع أكثر من شخص واحد في آن واحد. من كانوا إلى الطاولة هم أصدقائي، لكنني لا أظن أني قادر على لقاء ذلك الكم من الأشخاص معًا مرة أخرى. لا تزال أصواتهم تتردّد في رأسي. شعرت برغبة بمغادرة الحانة بعد مضي وقت قصير. ربما هذا الشعور دفعني للإفراط بشرب العرق. في العادة، أمضي أمسياتي في البيت، لذلك فخروجي ليلًا أول مرة، بدا لي غير مألوف. أشعر بالأمان في هذه الصالة أكثر، حين أشعر بالضيق. أفضّل التجول ما بين الردهة وغرفة النوم والمطبخ على الخروج من البيت. تركت المطبخ في حالة فوضى حين خرجت اليوم من البيت. هل عثرت على القهوة بسهولة؟ وجدتها بسهولة. البيت بالتنظيم نفسه دائمًا، يا بوراتين. كل شيء في مكانه المعتاد دائمًا. لا أحد يعلم كم من الأجيال تعاقبت على هذه الأرائك والخزائن واللوحات دون أن يتم تحريكها من

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

مكانها. حين استأجرت هذا البيت، مازحك أصدقاؤنا قائلين، إنك تبدو أكبر من عمرك الفعلي بخمسين سنة في هذا البيت، فأجبتهم، يا قارئي النوتة! بل أنا أكبر عمرًا بمائة سنة لا خمسين. كنت تهوى جمع كل قديم من الجيتارات والكتب وأثاث البيت. أنت ما زلت كذلك، على الأغلب. لم تتغيّر ميولك مع ذاكرتك. لا أعلم يا هيالا. تعجبني هذه الأريكة أحيانًا، ولا تعجبني أحيانًا أخرى. أمضي يومًا متمددًا هنا، وبعد يوم، أتحاشى الجلوس عليها. تلك الثريا لا تبهر عيني أحيانًا، وأشعر بالانزعاج من قطعها الكريستالية في أحايين أخرى. انظري إلى الجيتارات، ما أروعها، كلٌ منها قطعة فنية مختلفة، بأوتارها الناعمة، وبحجمها الكبير، وبلونها الأزرق. تعيش ألحان بعدد أشجار الغابة، بين سحر ذراعها ومفاتيحها. يتقلّب مزاجي بسرعة، فتبدو الجيتارات لي لا قيمة لها، وقد ألقيها جميعها في حاوية القمامة في الشارع في ليلة ما. تتبسم هيالا وتقول، حين تقرّر إلقاءها في الحاوية، هاتفني كي آخذ أشياءك إلى حاويتي. أخرج دفتر أرقام الهواتف من المنضدة الجانبية، وأعطيه لهيالا. هل رقم هاتفك مكتوب هنا؟ أسألها. تضع هيالا الدفتر على ركبتيها، بينما تحمل كوب القهوة بيد، تقلب صفحاته بيدها الأخرى. تجد اسمها فتقول، ها هو مكتوب هنا، لكن لم يبقَ أحد يحتفظ بمثل دفتر الهواتف هذا في بيته، يا بوراتين، الكل يحتفظ بالأرقام في هاتفه الجوال. لا نرى هذه الدفاتر سوى في الأفلام القديمة. في الحقيقة، فالهاتف القديم ذو القرص في هذا البيت، يليق به دفتر بأوراق مصفرّة. هيالا، هل سبق وأسأت إليك؟ تتردّد هيالا للحظة. تحتسي جرعة من قهوتها. تضغط بدفتر الهواتف على صدرها. تنظر إليّ بوجه اختلفت تعابيره. إما أنها تراني شخصًا مختلفًا عما كنت عليه، أو أنها تراني قد عدت إلى حالتي السابقة. أنا الآن، الأكثر بعدًا عنها، والأكثر قربًا لها. قد تخرج وتذهب دون أن تقول أي شيء، أو قد تتكلم دون توقف حتى الصباح. بوراتين، تقول. ماذا يدور في خلدك، حتى تسألني مثل هذا السؤال؟ أخشى أني قد أسأت إليك في الماضي،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أقول. في الحقيقة، أشعر بصعوبة في توضيح ما أشعر به. عندما أغرق في بحر من الأفكار المتعلقة بماضيّ، أجد نفسي أمام جدار أبيض. لا جدوى من السّعي لرؤية خيوط من حياتي على جدار ناصع البياض، فلا دلالة بيّنة ولا حتى اسوداد. لا شيء أمامي سوى الفراغ. عندما أنظر صباحًا ومساء إلى الفراغ، أدرك مع الوقت أني قد أصبحت الفراغ نفسه. عندما لا أجد أي أثر يتعلّق بي، أفكّر إلى من أسأت وكيف. حين يرن الهاتف، أو حين أتعرّف على شخص ما، أظن أنه سيخبرني عن سيئاتي الماضية. ربما لم أرتكب أية إساءة، أو أن الجميع متسامحون، وينتظرون حتى أتعافى كي يخبروني بالحقيقة. تضع هيالا يدها على ذراعي. لا تخشَ مني، يا بوراتين، تقول. لم تسئ إليّ قط، بل على العكس تمامًا، لقد عاملتني بالحسنى. كنت تقف إلى جانبي في خلافات فرقتنا. وصلت في العام الماضي، إلى نقطة اللاعودة، وقررّت الانسحاب من الفرقة، لكنك أقنعتني بالبقاء. عندما لم أتمكّن من تسديد أجرة البيت، وتراكمت ديوني عدة أشهر، مددت لي يد العون. لا أعتقد أنك قد تسيء إلى أحد. إن ادعى أحد بذلك، فكّر جيدًا، فلابد أن الملامة تقع على الطرف الآخر أولًا، لا عليك. تسحب هيالا يدها عن ذراعي. تنتظر أن أتكلم دون أن ترفع نظرها عني، فأقول، أشعر أحيانًا، بأن شخصًا في الشارع يلاحقني بنظراته، فأظن أنه يعرفني. شخص حانق عليّ. أشعر بالرهبة. كنت أبحث عن تلك النظرات في عيون جميع الأصدقاء حين كنا في حانة ثيودورا. كنت تجلسين أمامي. التقت عيوننا أكثر من مرة. حين لاحظت عليك تلك النظرة المقلقة قبيل انتهاء السهرة، أملت رأسي نحو صدري، وأفرطت بشرب العرق. بوراتين، تقول هيالا، صدّقني، أنت لست كما تظن. ما رأيته من نظرات لي لا تحمل نحوك سوى المودة الجمّة. لا يكتفي الناس بمحبتهم لك، بل يشعر معظمهم بأنهم مدينون لك. لقد تركت أثرًا طيبًا في حياة الناس بطريقة أو بأخرى، ومنحتهم جزءًا من نفسك. ما تحمله من شعور بالذنب، مردّه لنسيانك ماضيك. تلوم نفسك لفقدانك

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

ذاكرتك. ربما أنت على حق يا هيالا، لكنني لا أستطيع كبح ما يجول في عقلي. كلما خرجت إلى الشارع، أشعر برغبة بمساعدة الآخرين، الناس المحتاجين للعون. كأن الدنيا الخارجية تنتظرني. هذه الرغبة حين تراودني يصاحبها شعور بالرهبة. عندئذ، ينتابني الشعور بأن رغبتي بعمل الخير، ليست سوى ابتغاء لمحو ما اقترفته من سيئات في ماضيّ. تأخذ هيالا كوب القهوة من يدي. لقد بردت قهوتك، سأجدّدها، تقول. تنساب قدماها الحافيتان على الأرضية الخشبية إلى المطبخ. تعود بقهوة طازجة بعد قليل. تقول، كنت تنقل في موسيقاك الشيء نفسه، تصوغ ما لا يخطر على الذهن من أفكار، وتدعها تنساب كلمات. ليتك لا تفقد موهبتك هذه. أذكر أنك كنت توقفنا أثناء أدائنا بروفة الغناء، وتتحدث مطولًا عن دواعي تغييرك للإيقاع هنا أو هناك. تتحدث مرارًا عن أنين العبيد في أميركا الشمالية، وعن شقاء متشردي إسطنبول، وعن انفعالات الشباب العاشقين. كنت تقتبس من الكتب مقاطع، وتعطي لموسيقاك روحًا وصوتًا يرتفع حتى السماء. نضع آلاتنا الموسيقية جانبًا، ونستمع لك باهتمام ثانية، لما سبق أن تحدثت عنه مطولًا. لا تظن يابوراتين، أني أتحدث عن ماضٍ بعيد. كان هذا قبل عدة أسابيع فقط. حين أريتنا غلاف ألبومك "الغواصة" المعلق على الحائط ذاك، تحدثت مطولًا أيضًا. أنظر إلى حيث أشارت هيالا، إلى أغلفة الاسطوانات، وأسماء المغنين. أضواء قطع الثريا الكريستالية تلمع منعكسة على الجيتارات، لتعزف نغمة مختلفة مع كل وتر متدرجة على عتب الجيتار ومقاماته. أعرف أن تلك النغمات تتردّد هناك، لكنني لا أسمعها. هيالا، أقول، أنظر إلى ذلك الحائط وتلك الجيتارات كل يوم، لساعات. أقلّب الاسطوانات بحثًا عن شيء يساعدني. أقرأ أغلفة الاسطوانات. أحاول العثور على شيء يناديني في كلمات الأغاني، وبينما أنظر الآن، إلى الحائط والاسطوانات، أبحث عن الشيء نفسه. ما هو، يا بوراتين، عمّ تبحثِ؟ لا أعرف، لن أدرك ما هو حتى أجده. لا أشعر بفراغ في عقلي، بل هو محشو بما هو أكثر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مما يظنه الجميع. أنا أشعر بالرهبة مما بقي في ذهني، ومما فقدته أيضًا. مثلًا: أفكر بأمور قديمة بقيت في ذهني من بواقي الماضي، ربما قد قرأتها في الكتب. يقال إن الكون باعتباره أقدم حال للوجود، كان على شكل كرة صغيرة، ثم حصل انفجار هائل، فانتشر وبدأ الزمن. أتساءل عما كان قبله. أعرف مدى هراء ما أفكّر به ثم أقول لنفسي، وإذا لم يكن ذلك هراء، فيتشوّش ذهني. قولي يا هيالا، لو كنت مكاني ماذا تفعلين؟ تتريّث هيالا بضع ثوان، قبل أن تجيب ثم تقول، على الأغلب، أستمع إلى نصائح المقربين مني. أتعلم التحلي بالصبر وعدم القلق. أضع أحلامًا للمستقبل بدلًا من التفكير بالماضي. ما هي أحلامك يا بوراتين؟ عن أي أحلام تتحدثين؟ لا أعرف إن كانت لي أحلام أم لا. حين أفكّر للحظات، جدار أبيض يظهر أمام عينيّ ثانية. جدار يمتد طولًا وعرضًا، يحجب الأفق. قد يواجه المرء الظلمة في كل مكان، ويعتاد المرء عليها، لكن البياض اللانهائي لا يُحتمل. بوراتين، تقول هيالا، أطلب أمنية ما، ترجو أن تتحقق، لنعتبرها بمثابة حلم لك. ما الذي تريده الآن، في حياتك؟ أولًا، أقول، أريد النوم المتواصل براحة وعمق. أريد الاستيقاظ دون صداع في الرأس. أريد عند استيقاظي من النوم، أن أعرف نفسي ويعود لي ماضيّ ثانية. إضافة إلى ذلك، عدم الشعور بالرهبة من ماضيّ. إنني أشعر بالرّهبة منه لأنني لا أعرف ماذا يحمل. أن أستيقظ ذات صباح، فأرى كل ما نسيته من أيامي قد عاد إلى ذهني أثناء نومي. أريد أن أعرف سبب محاولتي الانتحار. ماذا لو دفعني معرفة ذلك إلى الجنون ودعاني للانتحار ثانية... ما أشعر برغبة شديدة لمعرفته، أشعر في الوقت نفسه، برغبة شديدة للهرب من معرفته. ما أسميته أحلامًا، يجتمع معًا في داخلي، ليتحوّل إلى خوف شديد. أشعر في بعض الليالي، برغبة بكسر المرآة بقبضة يدي. أشعل النور، أقف أمام المرآة وأنظر إلى الوجه في داخلها. ذلك الوجه، يعرفني ويناديني ليخبرني بما يحمل عني من أسرار في داخله. الطريق المؤدية من وجهي حتى ذلك الوجه في المرآة

طويل جدًا، حتى أني لا أجد الجرأة لدخول ممراته المتاهية الرطبة. لا أعرف السبيل إليه ولا بوصلة لدي، طرق النجوم ملبّدة بالغيوم. أعود إلى السرير، وأغطي رأسي باللحاف. أنا وحيد. أشرع بالعد العكسي للأرقام ابتداء من الصفر. ناقص واحد وأربعين، ناقص اثنين وأربعين، ناقص ثلاثة وأربعين. لا بداية للأعداد ولا نهاية. لو كنت مكاني ماذا تفعلين؟ تنظر هيالا إلي بعينين ضبابيّتين. تأخذ كوب القهوة من يدي وتضعه على الأرض. تداعب وجنتي. تقرّب وجهها وتقبلني من شفتي. تتريّث برهة وقد اختلطت أنفاسنا، أتخاف مما سيلي ذلك؟ تسأل. أجل، أخاف. تتراجع هيالا برفق. لم نتبادل القبل سابقًا، تقول. يداها ترتعشان. أهدابها ترفّ. تضع يدها على جبينها كي توقف ارتعاشها، ثم تمرّرها على شعرها. هيالا، أقول، أنا، لم أتبادل القبل مع أحد قط. جسمي فارغ مثل ذهني. شخص من الماضي، كان يدعى بوراتين، يعيش ويتجوّل ويشعر بالسعادة. يعامل النساء برقة ويهواهن. لا أعرف كيف أعيش مثله، أخاف منه وأخشى مما كان يفعله. كيف تفسّرين ذلك؟ تقترب هيالا ثانية. أصابعها تلامس عنقي كجناحي طير. بوراتين، تقول، اترك نفسك، اترك نفسك لي. تطبق شفتيها على شفتي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هائم على وجهك وحيدًا في شارع الضباب

13

أتى بيك يوم أمس. ألقى نظرة على خزائن المطبخ ثم ذهب إلى البقال وتسوّق. تحدث حول ما يُعرض من الأفلام في دور العرض، وعن أقرب الممثلين والمخرجين إلى قلبي. اقترح أن نخرج للتنزه تحت شمس الخريف. لا أرغب بالذهاب إلى السينما، ولا بالخروج إلى الشارع. لم أخرج من البيت منذ أسبوع. أمضي الوقت كله في السرير. أتقلب ذات اليمين وذات اليسار، أحدق في السقف، وأسترق السمع إلى أحاديث ضبابية في الشقة المجاورة. أمعن النظر في أظافري، وأصابعي، وعروق معصمي. أشعر بدم جديد يجري في عروقي، وبارتفاع حرارته، فأتصبب عرقًا في الحال. أنهض وأجلس على السرير، وأكشف عن صدري. أمسح العرق عن عنقي بيدي. حين أرى ضياء النهار يسطع عبر النافذة، أدرك أن الوقت لا يزال حول الظهيرة. هيّا انهَض، صوت يهتف في داخلي. أنزل عن السرير على عجل. تتسلل برودة الأرضية الخشبية إلى قدميَ. خطوة واحدة، خطوتان. أذهب وأفتح باب الشرفة، مثل ما أفعل كل صباح. رياح البحر تداعب وجهي. أستنشق هواء نقيًا. حال الشرفة هي نفسها مثل أمس وقبل أمس، مليئة بأوراق شجر نشرتها الرياح. الحاجز الحديدي للشرفة صدئ، وتعلوه طبقة من الغبار كثيفة. ما إن تطأ قدماي أوراق الشجر الصفراء الجافة حتى أتوقف مشدوهًا حال رؤيتي لعشّ حمام عند مربط حبل الغسيل على الحائط الأيسر للشرفة. أمعن النظر إلى العش المنسوج من الأعشاب وعيدان القش. لا أعلم لِمَ لم أره من قبل رغم خروجي إلى الشرفة كل يوم من أيامي الماضية. لا أظن أن العشّ قد بُنيَ حديثًا، فمظهره لا يوحي بذلك. الحمامة الراقدة على البيض تتأمل السماء. تبدي يقظة من الغربان والبوم المختبئة على أشجار الجادة، أو ربما تنتظر بعلها أيضًا. النوارس ترتفع وتهبط مع الرياح

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القادمة من الغطاء الشجري لحديقة "غولهانة" بألوانه الحمراء والخضراء. تتقلقل الحمامة منزعجة، وتحني رأسها نحوي حين تلاحظ وقوفي في الشرفة. ربما تظنني طيرًا جارحًا. أتراجع، أغلق الباب، وأتركها وحدها على الشرفة. حين أقف خلف الزجاج، تتحوّل إسطنبول إلى لوحة بلا روح من جديد. الحمامة أيضًا، لا تتحرك فتبدو لي كصورة على بطاقة تذكارية. سحب متراكمة فوق برج بايزيد. يتدرج اللون البني لحي سوليمانية المشرف على الخليج، ليتحوّل عند انعطاف الخليج إلى اللون الرمادي. الألوان الشاحبة لحي منحدر "بلات"، تغيب وسط الضباب عند الأفق الغربي. أيوحي كل هذا، بهطول المطر قريبًا؟ إذا أمطرت فماذا سيفعل الحمام؟

أغسل وجهي في الحمّام، وأمشط شعري. ألقي نظرة على الثلاجة في المطبخ. أضع قطعة جبن بين شريحتين من الخبز. أذهب إلى نافذة الصالة. أستند إلى الأريكة، وأتناول شطيرتي واقفًا. منظر مختلف لإسطنبول من هذا الركن من البيت. جدران أسمنتية ترتفع لتحجب السماء. هنا، في الشارع حيث أقيم، تحوم القطط والكلاب بدلًا من الطيور، على الرصيف أكوام من القمامة لا تختفي أبدًا، وصمت من وحي الأفلام الصامتة يخيّم منذ سنوات. امرأة إلى جانب أكوام القمامة، جاثمة على الرصيف، تهدهد طفلها على ركبتيها. كلاهما بأقدام حافية. إحدى يديّ المرأة على طفلها، والأخرى ممدودة أمامها تستجدي. صوتها مرتفع حتى أكاد أسمعه من مكاني. الجوع، المرض، الحرب، وكلمات أخرى بلغة لا أعرفها. لابد أن المرأة هربت من حرب، عبرت الحدود ووصلت إلى هنا. تنام كل ليلة، في ركن مهجور مختلف، ومع كل صباح جديد، تستجدي على رصيف مختلف. لا تنظر إلى السماء بل إلى المارة. لا تذكر متى عاشت الحرب، ولا الجهة التي عبرت منها الحدود. الحرب تستعر بالأكاذيب، وتستمر بالأكاذيب، وتضع أوزارها بالحقائق. البعض

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يتخلّف هناك. زوجها، وإخوة الطفل. الطفل ينام دون إدراك لكل تلك المآسي. سينسى كل شيء مع الموت. ألتفت وأنظر إلى التمثال على رف الموقدة. السيد المسيح يرقد على ركبتي أمه منذ ألفي عام، جسده عارٍ وكتفاه منحنيان. ذراعه اليمنى متدلية أسفل غطاء قماشي. وجهه بلا روح، يشبه وجه الطفل في الشارع. اليد المتعبة لأمه منبسطة تنتظر. تنظر إلى جمال ابنها رغم جراحه، وتغيب في حلم أبدي. لا أفهم ما هو ذلك الحلم. أتساءل لِمَ لم تأخذ صاحبة البيت هذا التمثال الرخامي معها، وسلمته إلى شخص غريب مع كل ماضيها. شدّت رحالها، وغادرت على نيّة عدم العودة ثانية للنوم مع جفوة هذا البيت. ربما كان أملها الوحيد، أن تكون مع ابنها وأن تموت قبله. ربما كانت تفكر بذلك كلما نظرت إلى التمثال، عندما كانت تعيش في هذا البيت. إيمان المرأة المسنّة بالسيد المسيح والسيدة العذراء، لم يقلّل من ألمهما، ولم يتعارض مع إيماني. ما دلالة إيماني بنفسي وماضيّ أو عدمه؟ أجوب الصالة جيئة وذهابًا، ورأسي مائل إلى صدري. لا مجال أمامي للمشي أبعد منها. أجلس على الأريكة. أفكّر بما قالته هيالا بينما كانت تعد مائدة الإفطار هنا: بيتك مليء بالتماثيل واللوحات، لكن لِمَ لا توجِد صورة لك بين هذه اللوحات. لا أعرف، قلت. بعد أن ذهبت هيالا، أمعنت النظر في الردهة والغرف. ما قالته كان صائبًا. لا توجد على الجدران لا صورة لي ولا لأحد آخر. لا أثر من طفولتي ولا من حفلاتي الموسيقية. عندما فتّشت البيت سابقًا، كنت أبحث في الخزائن والأدراج، دون معرفة عمّا أبحث، لكنني أعرف هذه المرة، عمّا أبحث. في عمق إحدى الخزائن، وجدت ألبوم صور بين مجموعة من الأزياء الغريبة. ألبوم رُفع بعيدًا عن الأنظار. قلّبت صفحاته بتمعن. صور لأماكن لا أعرفها، وعهود لم أعهدها. أشخاص يضحكون في صورة، ويعبسون في صورة أخرى. أناس يحبون التقاط صور لهم مع الآخرين. شخص بوجه طفولي يشبهني، يتوسّط عددًا من الأشخاص، لكنه لا يشبهني في صور أخرى. وجه مثل وجهي في المرآة، جامد

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبلا لون، يقف في الظل، ويدعونني إلى طرق متاهية وممرات سرية، ويشير إلى آفاق ظلامية موحشة، وخانقة. صور مراوغة في مكان ما، في بلاد لا أعرفها، وقمر ساطع ضحوك. في صورة أخرى، قطة تجلس في النافذة. أنا إلى جانب القطة، أعانق امرأة نصف عارية. وجه المرأة غير ظاهر. كتفاها تشبهان كتفا هيالا. ربما الأكتاف العارية لكل النساء تشبه كتف هيالا. الأماكن تتغيّر في الصور على الدوام. وجدت صعوبة بالمتابعة. أرهق ذهني. أغلقت الألبوم. أبقيته بين يدي فترة من الوقت. إن كنت قد رفعته بعيدًا عن الأنظار سابقًا، فلابد من مبرر لذلك. فكّرت بأنه ينبغي عليّ الوثوق ببعضٍ من ذاتي الماضية. حملت الألبوم، وأعدته إلى مكانه السابق في الخزانة، ثم وضعت الألبسة فوقه. أحكمت إغلاق باب الخزانة. لم أجب على رسالة خليوية من هيالا تسألني فيها إن كنت قد وجدت صورًا لي. لم أجب على أي من رسائلها ذلك اليوم. لم أكتب لها حتى اليوم التالي. كلما أفكر بهيالا، أشعر بألم في ضلعي المكسور. تتثاقل أنفاسي، تلمس أصابعي من تلقاء نفسها، الطرف الأيمن من صدري. تنتشر حرارة هيالا أسفل بطني. كلما اشتد عناق هيالا لي، أشعر أن عظمة ضلعي تنفصل عني وتبتعد، وما تكاد أنفاسي تنقطع حتى تعود إليّ. يداي تتحركان من تلقائها، وساقاي أيضًا. يصبح جسمي غير جسمي الذي أعرفه. يموج وينكسر. لا يمكنني اللحاق بك يا هيالا، على مهلك. لا أستطيع تمييز الأصوات المنبعثة من حلقي. أئن بحشرجة. فقدت ذاكرتي، ولم يبقَ لي شيء سوى الجسد، وأخشى الآن، أن أفقده أيضًا. توقفي يا هيالا، أقول، توقفي، أشعر بالألم. الأضواء في عيني تنير وتنطفئ. قرأت في الكتب أن الجسد بيت الروح. روحي خرجت من جسدي منذ وقت طويل، بينما مأساتي قد شارفت على الانتهاء، ولم يبقَ لي من أنفاسي سوى القليل، وتريد هيالا انتزاعها الآن، أيضًا. أنصاع لها. أسلّم أنفاسي لها. ضوء ضبابي يختفي السقف خلفه. رياح الليل تتسلل من النافذة المفتوحة. تجتمع المدينة كلها في جسدي، والزمن أيضًا. أتناثر إلى ذرات

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

صغيرة كقطعة جليد سقطت على الرخام. هيالا! هل أنا الآن، على قيد الحياة؟ أنت على قيد الحياة، لا تخشَ شيئًا، لا تعتبر ميتًا حتى ولو كنت أكبر سنًا منّي. هل أنا أكبر منك سنًا؟ أجل، أكبر مني بأربع سنوات، لقد أصبحت في الرابعة والعشرين من عمري حديثًا. كيف يشعر المرء في سن الرابعة والعشرين، أتتشابه الأعمار؟ ربما تتشابه، وربما لا. لا أدري، لم أفكّر بذلك. حسنًا، هل تتقدم الأزمان بالسرعة نفسها، هل مضت أعوامك الأربعة والعشرين بسرعة، أم ببطء؟ بوراتين، لقد تقدم زماني ببطء. أرجو أن يحافظ زماني على سرعته البطيئة نفسها حتى أصل إلى نيويورك. هل ستذهبين إلى نيويورك، ومتى؟ ليس بعد يا بوراتين، كما أنك لم تسألني عن أمنيتي حين سألتك عن أمنيتك، فأنا لي أمنيتي أيضًا، أتمنى تحقيقها. لك دور في إحياء هذه الأمنية في نفسي، يا بوراتين. هيالا، تحدثي بوضوح، أجد صعوبة في فهمك، هل سبق لي أن زرت نيويورك؟ أجل، زرت أماكن عديدة يا بوراتين. أذكر، ذات مساء في الحانة، بينما كنت تتحدث عما زرته من مدن، قلت: على المرء أن يمضي العشرينات من عمره في نيويورك، وأن يمضي الثلاثينات من عمره في لندن، والأربعينات من عمره في باريس. هل أنا من قلت ذلك؟ أجل، أنت قلت ذلك، وأنا اقتنعت به. على أية حال، أريد الابتعاد عن هذه البلاد. أبني في خيالي أن أقيم في نيويورك قبل أن أصبح في الثلاثينات من عمري. ماذا ستفعلين هناك؟ ما أفعله هنا. سأعزف على الجيتار وأغنّي. قد أنظف الأرض في البارات، إن تطلّب الأمر ذلك، لكنني لن أعود إلى هذه المدينة ثانية. ما عادت إسطنبول تَعِدُ أحدًا بشيء. السحر القديم لهذه المدينة قد اختنق وغاب تحت رداء من الظلمة. هيالا، حالك هناك، ستشبه حالي الآن. لن يعود لك ماضٍ لأنك ستتركينه خلف البحار. بوراتين، أنا راضية بذلك. أنا مستعدة للعودة إلى نقطة الصفر، من أجل بداية جديدة. حسنًا، ألم أقل شيئًا عن المدن الأخرى بما فيها إسطنبول، في أي عقد من عقود عمرنا علينا أن نعيشه هنا؟ لم تحدثني عن ذلك يا بوراتين. أنت تعيش

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كل الأعمار في إسطنبول، تكشف عن ذلك بالشجن والفرح المميز في أغانيك. تنشر في نفسك السعادة من صميم التعاسة. عندما كنا نفكر باختيار اسم لفرقتنا، اقترحت علينا اسم "الغواصة". لقد أحببنا هذا الاسم. أعتقد أني حتى لو أحببت موسيقى البلوز وأحببتك وأحببت فرقتنا، لن تتمكن هذه المدينة من تحقيق أحلامنا. لذلك فإن فكرة السفر بعيدًا تجول في رأسي. ليتك ترافقني إلى نيويورك أيضًا. حسنًا هل كنت أفكر بالعودة إلى هناك، هل تحدثت عن ذلك؟ لم تكمل دراستك الجامعية في إسطنبول. غادرت البلاد، وتنقّلت لثلاث سنوات. أتذكر حياة العبيد في أمريكا في الماضي؟ لم يخطو العبيد خطوة واحدة على مدى مئات السنين، خارج مزارع قصب السكر والأرز والقطن؛ وبعد أن نالوا حريتهم، هاموا في الطرقات بلا هدف، وحملوا معهم موسيقى البلوز وأغنياته أينما ذهبوا. لقد فعلت مثلهم أيضًا، لكن عندما عُدت إلى إسطنبول، كانت أفكارك قد تغيّرت. قلت إن أرواحنا تعيش الزمان لا المكان. علينا أن نعيش الماضي والمستقبل في الزمن الحاضر. علينا أن نجمع بين الشجن والفرح والغضب. أفضل مكان لذلك هي إسطنبول. هيالا، أفهم أن نجمع بين الشجن والفرح، لكن ما علاقة الغضبِ بهما؟ قلت إن كانت موسيقانا بلا غضب فلن تمثّل هذه المدينة وناسها. أقنعتنا. لقد ألقيت رحالك في إسطنبول، وما عدت تتحدث لا عن نيويورك ولا عن أي مدينة أخرى. حسنًا، وماذا عن نهيرجة؟ حيث وُلدت وترعرعت؟ بوراتين، كنت تذكر نهيرجة في كثير من الأحيان، لكن حسب معرفتي، لم تذهب هناك في الماضي القريب. كنت تعمل على أغنية حولها. استغرق ذلك منك وقتًا طويلًا، لكنني لا أعلم لِمَ لم تتمكن من الانتهاء منها. أخبرتنا أن الأغنية ستحمل اللون الكلاسيكي لموسيقى البلوز، كلماتها من ثلاثة أبيات وموسيقاها من اثنتي عشرة جملة لحنية. حينذاك، مازحك أفراد فرقتنا، طالبين منك أغنيات حول بلداتهم، فأجبتهم بروح الدعابة نفسها. السنة الماضية، بينما كنا نؤدّي إحدى بروفات الغناء، وقفت وسط خشبة

المسرح وقلت، اسمعوني يا قارئي النوتة. هيالا، لقد استخدمت هذه الكلمة قبل قليل، ما معنى قارئ النوتة؟ ها، أجل، كلنا قد تعلمنا العزف والغناء في المعاهد الموسيقية. أما أنت فعزفك سماعي. كنت تقول إن موسيقى البلوز لا تخرج من النوتة بل من أرواحنا. أحقًا لم أكن أعرف قراءة النوتة؟ بوراتين، إن كنت في شك من ذلك، فربما أفراد فرقتنا على حق. كانوا يقولون إنك تعرف قراءة النوتة، لكنك تتجاهلها، على اعتبار أنها لا تتفق وموسيقى البلوز. كنت تنكر معرفتك لقراءة النوتة، وتقابلهم بالضحك دون مبالاة لمزاحهم. ذلك اليوم، اسمعوني، قلت ثم بسطت ذراعيك، ورفعت صوتك الطنان، وأردفت: الغرب ليس غربًا يا قارئي النوتة، والشرق ليس شرقًا. الرّبّ ليس الرّبّ، والإنسان نصف الحقيقة. إسطنبول ليست إسطنبول يا قارئي النوتة، ونهيرجة ليست نهيرجة أيضًا. كنت تحب القيام بمثل هذه الاستعراضات أمامنا كأنك على خشبة المسرح.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

14

أخرج من البيت ذات يوم قبيل الغروب، والرياح البحرية الشديدة تعصف بالمدينة. أتمشّى في شوارع ضيقة وطويلة. أجلس إلى طاولات الرصيف لأحد المطاعم وأسكت جوعي تارة، وأشرب الشاي في أحد مقاهي الشاي تارة أخرى ثم أتابع مسيري على غير هدى فألاحظ أن هناك تشابهًا بين معظم الأزقة في وقع الخطوات على حجارة الطرق الخربة، وفي الأرصفة الضيقة، وفي القصارة الباهتة للأبنية. أدس يديّ في جيبيّ خشية برودة الهواء، وأتابع أعمدة إنارة الشوارع. حين أدرك أني قد ضللت طريقي، أتوجه نحو بائع كستناء جوّال باسِم الوجه، يقف عند ناصية الشارع، أشتري منه بعضًا من حبات الكستناء ثم أسأله عن طريقي. بعد مسيرة طويلة، أصل إلى شارع مليء بالأبنية القديمة حيث بار "الخليج". أرى عند مدخل البار ملصقًا يحمل اسم "الغواصة" وصورة لي. أنظر دون اقتراب. أتردّد بالدخول، أقف إلى الجدار لأدخن سيجارة. تنتهي السيجارة سريعًا. أميل رأسي نحو صدري، وأتجه نحو الشارع الجانبي. أجد الباب الخلفي لدخول العاملين. أفتح الباب الحديدي الصغير. ممر معتم، وبصيص نور في نهايته. رائحة دخان ورطوبة. لا يظهر أحد في الممر. أصعد إلى الطابق الثاني من الدرج الجانبي. أواجه بطاولات مزدحمة. الكل غارق في الحديث. الأصوات تتردّد ضمن حدود القاعة الطابقية. أخفض طاقيتي السوداء على جبيني، وأعدّل من وضع نظارتي السوداء. أرى طاولة إلى الحائط، شاغرة وبعيدة عن الأضواء. أتجه نحوها بخطوات سريعة. أثناء مروري بين الكراسي، لا ألفت انتباه أحد. قريب منهم وغريب عنهم في آن واحد. أجلس إلى الطاولة، وأخلع نظارتي لبعدي عن الأضواء. أنظر إلى القاعة السفلية. زحام إلى الطاولات حول خشبة المسرح، وزحام آخر ينتظر دوره أمام نضد البار. أطيافٌ تتحرك هنا وهناك في الوسط الضبابي. لا كلام مفهوم بل همهمة. يقفون

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

جنبًا إلى جنب، يتفاهمون دون حاجة إلى الكلام. ينظر بعضهم إلى بعض، يتبسّمون بصمت. الأصوات الخارجة بين الشفاه المتذبذبة، تحمل النبرة نفسها، والرقّة والمودّة نفسها. حين تتحد الأصوات وتتحوّل إلى ضجيج، يصبح الكل جزءًا من هذا الضجيج، والأجساد والأطياف جزءًا منه أيضًا. العيون تلمع، والأنفاس تسخن. يزدادون التصاقًا ببعضهم، تتلامس الأيدي، وتميل الكتف على الكتف، ويصل ضجيج القاعة السفلية إلى القاعة العلوية شيئًا فشيئًا. الليل لا يزال في بدايته. شباب بشعر طويل ونظارات أنيقة يتنقلون بين الطاولات وشعور بالراحة يغمرهم، كأنهم ولدوا هنا، وسيموتون ذات يوم، هنا. يغادرون بيوتهم ويغوصون في وسط الزحام بهوس. ربما الاختراع العظيم الثالث للإنسانية ليس سوى تساؤل واحد فقط، يتعلمونه في البيت أو في المدرسة، ثم يحاولون تجاهله طوال عمرهم. ملمس ساخن بالأصابع، ورشفة بالشفاه رطبة. ماذا بعد الموت؟ يتساءلون. هل ينتهي كل شيء بعد الموت، أم أن حياة جديدة تبدأ؟ هذا التساؤل هو الاختراع العظيم الثالث الكبير. هناك من وجد جوابًا، وآمن به. ماذا سيحصل لي بعد الموت؟ هذا التساؤل هو الفارق ما بيني وبين الحمامة. ذلك التساؤل ما يميزني عن الحمامة.

Telegram:@mbooks90

الحمامة لا تعرف سوى الملموس، وتعيش ضمن حدوده. أما أنا، فأفكّر بغير الملموس، وأسعى لتجاوز تلك الحدود. تجول أفكار شتى في رأسي. لو أتجاوز تلك الحدود وأرى كل شيء، ثم أنسى ما رأيته عند عودتي إلى الحياة. أشعر برغبة بشرب البيرة. أرغب بنديم لا يعرفني، يجالسني ويشاركني شرب البيرة. الحائط إلى جانب، ونديم إلى جانبي الآخر، ليثرثر بما يشاء كي لا يظنون أني وحيد وتعيس. لا أنا تعيس، ولا أنا سعيد. أكتفي بإدراك ما هو موجود، مثل الحمامة. لا شيء يشوّش ذهني. أعطي أهمية لكل تساؤل في بداية الأمر، ثم أستخف به. أنقل تشوّش عقلي إلى عقول الآخرين. يصرّ عليّ أصدقائي والأطباء والبقالون أن أتذكّر تقارير المستشفى، وبطاقات البنوك، وأرقام الهواتف.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

تُنار أضواء خشبة المسرح. يأخذ بيك مكانه على المسرح أولًا، ثم تليه هيالا، ثم يتبعهما الآخرون. من كان يشارك في العزف، وعلى أي آلة موسيقية؟ لا أذكر أحدًا. ينظمون الأسلاك ومكبرات الصوت، ثم يجلسون على كراسي مرتفعة. يتبادلون التحيات مع أشخاص واقفين أمام نضد البار. ينطفئ الضوء الأصفر للمسرح شيئًا فشيئًا، ويحلّ في الخلف ضوء أحمر داكن. يقرع بيك عَصَوَي الطبل ببعضهما، حيث يجلس أمام طقم الطبول والصنجات، وينظر إلى أصدقائه. تبدأ هيالا العزف على جيتارها. هذه الليلة، ارتدت هيالا تنورة قصيرة، وربطت شريطًا حول جبينها. تمرّر ريشة العزف على الأوتار، وتستهل العزف بإيقاع خفيف، متمايلة بخفة. إنه المكان نفسه حيث بسطت يديّ ذات يوم، كأني أقوم باستعراض أمام أصدقائي. هل تبدو الدنيا مختلفة من هناك؟ لابد أني كنت سعيدًا مع أصدقائي ما دمت قد تمازحت وضحكت معهم. كنت أثق بهم. وهبت حياتي لهم. لكن إلى أي مدى؟ سؤال جال في رأسي، وأمعنت التفكير فيه، لكن دون الوصول إلى نتيجة. ربما كنت لا أعرف عمّا أبحث. رأيت أن لا إرادة لي لا في حياتي ولا في مماتي. ربما الحل الوحيد كان بخوض تجربة الموت بإرادتي، بتجاوز المسافة ما بين الحياة والموت، بالانتحار. ربما اعتقدت أنها الوسيلة المثلى لإنقاذ عقلي من التفكير العقيم. كان الكل يعجب بي، ويثق بي، لكن ربما لم أجد نفسي وسط أصوات الزحام في البار، وربما كنت أشك بنفسي، ولا أعرف لماذا أعيش. شخص آخر كان يعيش داخلي، لا يعرفه أحد. غادرت الحياة دون علم أحد، وعدت ثانية ذلك الشخص الآخر. يجلس الآن، في بار "الخليج"، إلى طاولة بعيدة عن الأضواء، لا يقف على خشبة المسرح، بل يتابع من بعيد. تتقدم هيالا خطوتين نحو الميكروفون، وتشرع بالغناء: هائم على وجهك وحيدًا في شارع الضباب/ هائم على وجهك وحيدًا في شارع الضباب/ بكيت لحظة ولادتك/ لم تُسأل عن مولدك/ هائم على وجهك وحيدًا في شارع

الضباب/ خاب ظنك في الناس/ لم يأبه بك أحد/ هائم على وجهك وحيدًا في شارع الضباب/ تضورت جوعًا، أقمت في العراء/ لم يأبه بجوعك وعريك أحد/ هائم على وجهك وحيدًا في شارع الضباب/ لو سئلت، لما جئت إلى هذه الدنيا/ لو سئلت، لما جئت إلى هذه الدنيا/ هائم على وجهك وحيدًا في شارع الضباب/ هائم على وجهك وحيدًا في شارع الضباب.

صوت هيالا في الأغنية كالليل ينشر الظلمة. أصابعها تنزلق برقّة على العتب. تبدأ الأغنية بانتظام جميل، ثم ينشز تناغمها قليلًا، لسرعة في بعض مقاطعها. لا يكفي صوت هيالا لتجاوز هذا الخروج عن اللحن. لو يعاد العمل عليها، لاتزن انسياب الأغنية، وتوافق مع خطوات الشخص المتجول وحيدًا في شارع الضباب. كان يمكن لهيالا أن تؤديها بسلاسة. هل هيالا من كانت تؤدي هذه الأغنية دائمًا، أم أنا؟ أخرج علبة السجائر من جيبي. أشعل سيجارة، وأسند ظهري إلى الخلف. أفكّر بالفرق بين الاستماع إلى أغنية ما وبين تأديتها. ألتقط كل نغمة على المسرح، وأتابع الآلات الموسيقية الواحدة تلو الأخرى. في الجهة اليسرى من المسرح، يجلس الأفندي إلى البيانو، يداعب المفاتيح بأصابعه، ورأسه متجه حيث أجلس. نظراته لا تفارقني كأنه يراني رغم العتمة حولي. فضول ودهشة تغمر وجهه. هل استطاع تمييزي رغم العتمة في الصالة العلوية؟ هل رآني في ضوء شعلة عود الكبريت حين أشعلته، واستطاع تمييزي على الفور؟ رغم نظراته المتركّزة نحوي، لكن أصابعه تتنقّل بانسياب على المفاتيح من جهة إلى أخرى، دون خلل. لا يضلّ عن دوره في سياق الأغنية، كما لم يضلّ عني. ماذا يريد مني؟ ما عدت ذلك الرجل الذي كان في حياته. لا أظن أن ذلك عَصِيّ على الإدراك. أم أنه عصي، يا ترى؟ لم يكن يتوقع رؤيتي هنا. يقطب حاجبيه، وينظر كعدو وصديق في الوقت نفسه. يريدني أن أتسامر معه، وأمضي لياليّ البيضاء بصحبته. أفضفض

عن داخلي، وألجأ إلى صداقته. أن أشعر بالامتنان له لاستعادتي لذاتي القديمة من جديد، كما يشعر بالامتنان لي. يرسل لي سلامًا مع بيك من حين لآخر، ظنًا منه أن ذلك معروف وردّ للجميل. لا يدرك أن سلامه ليس معروفًا، بل تشويشًا لعقلي. لست أنا، من أعدته إلى الحياة، كما أن المفاتيح التي ستفتح أقفال حياتي المغلقة ليست في يده أيضًا (في يد من إذن؟). قلق يختلط بما يدور في ذهني من أفكار. كل ما اختلقه لنفسي من حجج ومبررات ينهار كل يوم. أشعر بالتخبّط، ويزوغ بصري. الأفندي يتابع النظر إلي بإصرار. أميل رأسي إلى صدري وأستند إلى الحائط. أضع النظارة على عينيّ ثانية. أنزل طاقيتي على جبيني. أسحب نفسًا عميقًا من السيجارة ثم أنفث دخانها. أسدل ستارة من الدخان على وجهي. أبدو في سحابة الدخان هذه، كسفينة تمخر داخل ضباب في جهة من المحيط نائية. لن يتمكن من العثور عليّ أحد. الدنيا تدور حول نفسها، وأنا أيضًا، أدور حول نفسي. ذات يوم، حين ينتهي الزمان، وأصبح جزءًا من الكل، أغيب وسط الزحام، أذهب وأطير عبر الشوارع والمحيطات والنجوم. لا أحد يتذكر أحدًا. أنا أيضًا، لا أتذكر أحدًا. من يتحمل جريرة كل هذا العبث؟ في المرةِ القادمة (متى؟) أريد أن أخبر هيالا كل ذلك في لقائنا القادم. تقترب هيالا ثانية من مكبر الصوت، وتستأنف الغناء: هائم على وجهك وحيدًا في شارع الضباب/ هائم على وجهك وحيدًا في شارع الضباب/ أحببت بجنون/ لم يسألك عن الحب أحد/ هائم على وجهك وحيدًا في شارع الضباب/ قطفت وردة، سرقت قلبًا/ لم يسألك لا عن الوردة ولا عن القلب أحد/ هائم على وجهك وحيدًا في شارع الضباب/ بكيت عند موتك بهدوء / لم يسألك عن الموت أحد/ هائم على وجهك وحيدًا في شارع الضباب/ لو سئلت لما فارقت هذه الدنيا/ هائم على وجهك وحيدًا في شارع الضباب/ هائم على وجهك وحيدًا في شارع الضباب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ترفع هيالا ذراع الجيتار، وتداعب الأوتار للمرة الأخيرة. تختتم الأغنية بنغمة هادئة، ومدّ في صوتها. تتريّث واقفة تحت الأضواء. ترتفع الأقداح والزجاجات وسط صيحات الإعجاب. تحيي هيالا الجميع بإيماءة من رأسها. رغم انتهاء الأغنية، لكن الشعور الحزين الذي بثته بأن هناك من يهيم على وجهه وحيدًا في شارع الضباب، لا يزال قائمًا في النفوس. سلامًا وتحية يا شباب، تقول. ها نحن نعود لنكون معًا من جديد، بعد انتهاء الإجازة. هناك من تابع إجازته ولم يشاركنا. بوراتين ليس هنا، لكن لا تقلقوا، قريبًا سيناجيكم من خلف مكبر الصوت هذا. أشكركم على تصفيقكم، وسننقل له إعجابكم بأغنيته. بدأنا الليلة بإحدى أغنياته، وسنتابع معكم بأغنية أخرى من كلماته وألحانه. تتراجع هيالا خطوة أمام مكبر الصوت، تقبض ثانية، على ذراع الجيتار. ترتكز على قدمها اليمنى، وتتمايل إلى الأمام والخلف. يغيب بوراتين عما يحدث حوله. يأخذ رأسه بين يديه، لماذا؟ لماذا؟ يكرّر في قرارة نفسه. يتساءل لِمَ لحّن هذه الأغنية على هذا النحو. يشعر بحيرة، لا لأن أغنية هائم على وجهه وحيدًا في شارع الضباب ليست له، بل لوجود بعض العيوب الصغيرة في هذه الأغنية الجميلة. يغلق أذنيه بكلتا يديه. لا يريد سماع شيء آخر. بينما كان يستمع للأغنية قبل قليل، تخيّل نفسه إلى جانب هيالا وبيك. لقد أوشك على الاعتقاد بأنه سيتمكن من الصعود على خشبة المسرح والعزف معهما ذات يوم. لقد تملكته الجرأة لفعل ذلك قبل قليل، لكنه الآن، يفقد جرأته وتتلاشى رغبته. ما عاد يرغب بمتابعتهما. يتخلى عن البقاء هنا بقية الليلة، وعن نيته السابقة بالالتقاء بأصدقائه خلف الكواليس. لقد جاء إلى هنا بدافع الفضول، ليرى كيف تبدو الدنيا من المسرح حيث يغنون. يمّحي فضوله ويختفي. في الصالة العلوية للبار، يجمد في مكانه كأنه جثة معلقة بكلّاب من ظهره. إن يستمع إلى عقله، فلا أسوأ من بقاءه كجثة معلقة بكلاب، وإن يستمع إلى قلبه، فلا شيء يعنيه، طالما يتنفس. بأيّهما يؤمن، عقله، أم قلبه؟ لا يجد السعادة

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التي كانت تمنحه له الموسيقى في زمان مضى، والتي يتذوّقها الشباب حوله الآن. إن كان سيجد السعادة هنا ذات ليلة، فليست هي هذه الليلة. ينهض بوراتين من مكانه. يخرج من العتمة، ويذهب تحت الأنوار. ينظر بحنق نحو الأفندي. يلومه لعدم تدخّله لإصلاح عيوب تلك الأغنية. كان يمكنك مساعدتي، لكنك لم تفعل شيئًا، يتمتم. أنت رجل جيد، أصدّقك، لكن لا يجدي نفعًا أن أصدّقك فقط. يرفع ياقة معطفه. يميل رأسه نحو صدره. يعبر كالظلّ بين الزحام المتزايد. ينسحب من الأصوات والروائح. يقف وسط الشارع، وينظر إلى أعلى. السماء متلبدة بالغيوم، والنجوم انسحبت، والرياح نشطت، وأوراق الأشجار ومُزق الأوراق غطّت الشارع الجانبي.

حين أخرج من بار الخليج عائدًا من الشوارع نفسها، أشعر كأنني وصلت إلى مدينة أخرى. الدخول إلى الشارع من طرفه الآخر، يشبه النظر إلى المرآة. واجهات الأبنية تبدو في الاتجاه المعاكس. خطوط الظلال تزداد دكنة. البعيد يقترب، والقريب يبتعد. وقع الخطوات على حجارة الشارع يتردّد على نحو مختلف. كل من يدخل الشارع من طرفه الأول، ثم يدخله من طرفه الثاني، يتوقف مثلي دائمًا. البعض يتغير كليّة. حين يعود رجل إلى بيته من طرف الشارع هذا، وتكون يداه خاويتين، ووجهه عبوس، يظهر في اليوم التالي عند الطرف الآخر للشارع، حاملًا لعبة أطفال وأزهارًا، ووجهه بشوش. تمر فتاة غاضبة من هنا، قد تخاصمت مع حبيبها، وتأتي في اليوم التالي، من الطرف الآخر للشارع، سعيدة، قد تصالحت مع حبيبها. أنا الوحيد الذي لا أتغيّر. ضلعي يؤلمني. لابد أن الألم ناتج عن البرد، الألم يخزني كالإبرة. كانت الرياح عند مجيئي، تصفع وجهي، والآن، أصبحت تجلد ظهري بسوط برودتها. لا أحد في انتظاري، ولست في عجلة من أمري. أعبر من شارع إلى آخر بخطوات ثقيلة. أقف عند إشارة مرور صفراء عند ناصية أحد الشوارع. الشارع خالٍ. لا مركبة ولا مارة. يضاء لي اللون الأصفر. أنتظر. إشارة المرور معطلة مثل ساعة البرج، تقف عالقة عند اللون نفسه. لا أعرف كم من الوقت عليّ الانتظار. أهذا الضوء الأصفر، استهلال للضوء الأخضر من أجل العبور، أم استهلال للضوء الأحمر من أجل الوقوف، أم أنه يضيء من أجله وحده؟ ما بين العبور والوقوف، يبقى الضوء الأصفر عالقًا ما بين الوجود وعدمه. يتركني وحدي عالقًا على الساحل المقفر للمدينة في منتصف الليل. لا أعلم كم من الوقت سأظل عالقًا عند تقاطع الطرق هذا حيث تتقاطع الرياح القادمة من كل اتجاه. زمن الليل يمضي ببطء. رجل في منتصف العمر يمر من جانبي ببطئي نفسه. حين يعبر

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

الرجل بخطوات ثملة إلى الرصيف الآخر ينظر إليّ. يظن أني قد فقدت عقلي. يهز رأسه كأنه يقول يا للمسكين، ويتابع طريقه. أعبر مثله للناحية الأخرى. أتوه في الأزقة المعتمة، أمشي جوار الجدران، محاولًا الاحتماء من سوط الرياح الشديدة. أسمع الأصوات خلف الستائر المسدلة. أغنية لامرأة، عواء ذئب، طقطقة قوائم خيل على الأرض. أصوات ترتفع وتنخفض لتلفزيونات هنا وهناك.

أصل إلى ميدان. أنظر يمينًا ويسارًا. أسأل بائعًا جوالًا يبيع الدجاج بالأرز، عن جادة "بي أوغلو". يشير البائع إلى شارع إلى اليسار، ويقول، يبدو أنك غريب، من أي جهة أنت؟ لست غريبًا، أقول. آخذ طبقًا من الدجاج بالأرز وأتناوله واقفًا. يبدو البائع واثقًا من نفسه، كأنه لم يغادر هذا الميدان مذ جاء بشعره المتموج من البحر قبل ألفي عام، وبشاربيه المفتولين من السهوب قبل ألفي عام أيضًا. يُسقط ظله القديم على العصر الحديث دون مبالاة. أعرف البشر جيدًا، أنت غريب، يبدو ذلك من نظراتك حولك، يقول بإصرار. أكرّر، قلت لك إني لست غريبًا، دخلت الشارع الخطأ فقط، فضللْت طريقي. لم أخرج إلى الشارع في منتصف الليل، منذ وقت طويل. تلتبس الطرقات على المرء في الليل ولا يميّز وجهته كما في النهار. صوت يقول في داخلي، ينبغي عليّ طرق الشوارع الرئيسية في الليل. إنْ أتُه في شارع رئيسي، فلن أضل طريقي. حين أصل إلى "بي أوغلو" ستتضح أمامي الاتجاهات. زحام الأنوار يجذبني، يحملني من موجة إلى أخرى، يدفع بي إلى الشوارع الجانبية، ثم يعيدني ويتركني في الشارع الرئيسي. كل الشوارع تشبه الشارع الرئيسي ببنيتها. كل الناس أيضًا، يشبه بعضهم بعضًا. العيون المتصيّدة تمشط الأرجاء حولها. الكل مستعد بالرغبة نفسها للعثور على فريسة، أو أن يكون فريسة. يعيشون الليل كما النهار. يثملون من الأنوار. حتى حين يتعاشرون في الظلام، يحملون في تعرقهم بعضًا من الأنوار. أشعر بغثيان

في المعدة وبرغبة بالتقيؤ. رأسي يدور. أستند إلى كشك هاتف خارج الخدمة، وزجاجه محطم. أنتظر زوال دوار رأسي. رائحة البول المنبعثة من أسفل الجدار، تزيد من شعوري بالغثيان. أنظر إلى ما كُتب على الجدار. كلمات لأغنيات مختلفة، إعلانات لحفلات موسيقية، وأسماء لفرق رياضية. ملصق ممزق، يحمل صورة لآخر سلطان عثماني. رُسمت دائرة داخلها الحرف "أ" على صورة السلطان. أعرف أنها شعار لحركة ثورية، لكنني لا أعرف لماذا عُلّق هذا الملصق لسلطان عاش قبل مائة عام. أشعر بحاجة إلى الجلوس بعيدًا عن رائحة البول لآخذ قسطًا من الراحة. عديد من الطاولات أمام المقاهي. أمشي ببطء على أمل العثور على طاولة شاغرة. شباب جالسون إلى طاولة، يتبسّمون لي حين يرونني قادمًا، ويحيونني. أردّ التحية. سيد بوراتين، يقولون، لقد شاهدناك على المسرح قبل عدة أشهر، هلّا تفضلت بالجلوس إلى طاولتنا؟ خمسة أشخاص. شابان وثلاث فتيات. يبدون أصغر سنًا مني ببضع سنوات. أجلس على كرسي إلى جانب الفتاة بفستان أزرق اللون. أطلب ماء معدنيًا بدلا من مشاركتهم شرب البيرة. اليوم أريح كبدي، أقول. أسالهم عن أعمالهم. يدرسون في الجامعة. غالبًا ما يمضون هنا نهاية الأسبوع. يولون اهتمامًا بالموسيقى والسينما. الفتيات الثلاث، جعلن من الشعار الذي رأيته على الملصق، قلادة يضعنها حول أعناقهن: حلقة داخلها الحرف "أ". لا قلادة حول عنقي. ألبس خاتمًا. بين أشيائي في البيت لمحت حِليَة. حتى أني لا ألبس ساعة بمعصمي. لو كان لدي قلادة لاخترت الحرف "ب"، على الأغلب. "ب" ترمز إلى البلوز. أترك زرّين من قميصي مفتوحين كي تظهر قلادتي. أصعد بها على المسرح. أنام ليلًا والقلادة حول عنقي، أضع يدي على صدري في الظلمة، وأتفقد "ب" بأصابعي. ستكون مصدرًا لإلهامي لفترة، ثم ذات ليلة، أخلعها عن عنقي، أمسكها بإحكام في راحتي، ثم أقفز في مياه البوسفور. أترك "ب" في قاع البحر، بين الطحالب الباردة. ما إن أخرج إلى سطح الماء ثانية حتى أنسى ما تركته في قاع البحر. ما

عاد هناك أي فارق بين "ب" والأحرف الأخرى. كل الأحرف ستتشابه. لا صوت ولا معنى. ما معنى "أ" التي على تلك الملصقات؟ أسأل وأستأنف السؤال، ولماذا خُطّت على صورة لسلطان عاش قبل مائة عام؟ يضحكون بصوت مرتفع. يظنون أني ألقيتُ بدعابة جميلة. معك حق، يقولون، ذلك الرجل على رأس الدولة الآن، لكنه يحمل رأسًا يعود إلى مائة عام. لذلك طلينا رأسه العائد إلى ما قبل مائة عام. أأنتم من فعل ذلك؟ أجل، أثناء الحراك الذي قمنا به في الأسبوع الماضي. معظم الكتابات في الشوارع الأخرى تعود لنا. يقرع الشباب أقداحهم محتفلين. أشاركهم برفع زجاجة المياه المعدنية. أدرك أني أخلط الأزمان ثانية، حين أرى شخصًا حيًا في الزمن الحاضر فأظنه بلحمه وشحمه يعود إلى الزمن الماضي. أعيد النظر من جديد إلى الملصقات على الجدار. أحاول فهم أفكار هذا الرجل الذي على رأس الدولة، أتراه يريد أن يعيد الماضي إلى الزمن الحاضر، أم يحاول إرجاع الحاضر إلى الزمن الماضي، ولماذا يلجأ إلى العنف والأكاذيب من أجل تحقيق ذلك؟ لو يُترَك الزمان هكذا ليعيش الناس حياتهم القصيرة بسعادة، فالماضي مكانُه الذّاكرة. مرحلة الطفولة، والجراح القديمة، والمباهج القدِيمة ستبقى حاضرة وإن غابت عن الذاكرة. كل من في هذا الشارع يختلف عني. يتذكرون ما حدث قبل عام، وقبل عشرة أعوام، دون أن يختنقوا بأسئلة تنهش أذهانهم. يعيشون بتآلف مع أسمائهم. يكذبون على أنفسهم حين يتعذر عليهم اجتناب أمر ما، ويستخدمون القوة عند الضرورة. يبكون، يغضبون، يخاصمون، وفي النهاية، يتصالحون مع أنفسهم عندما تهدأ ثورتهم، ثم ينظرون إليّ بعين الشفقة. لا تنظروا إليّ بعين الشفقة، أقول. سيد بوراتين، يقولون، ما الداعي لننظر إليك بعين الشفقة؟ لماذا قلت ذلك؟ عليّ اللعنة، أقول ما لا ينبغي قوله. أخلط بين ما يدور في رأسي وما يدور على لساني. لا أدرك ما أفعله. أقصد أنكم حين طليتم تلك الملصقات، لم أكن هنا، ولم أتمكن من مشاركتكم. لذلك لا تلوموني. ما قلته من تبرير، أشعر أصدقائي إلى

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الطاولة بالراحة. تضع الفتاة ذات الفستان الأزرق، يدها على يدي، وتقول، سيد بوراتين، في الحراك القادم، سنلتقي بك في هذا الشارع، ونطلي كل الجدران معًا، هل أنت موافق؟ موافق، أقول، أمر مضحك أن يظن هذا الرجل نفسه سلطانًا. أنا أيضًا أظن نفسي شخصًا آخر أحيانًا، لكنني لا أعلن ذلك على الملأ تحاشيًا من الوقوع في موقف مضحك. معك حق، تقول الفتاة ذات الفستان الأزرق، كلنا نعيش تلك المشاعر أحيانًا، لكننا لا نجبر الآخرين، ولا نقيّد الناس في معتقداتنا الخاصة، وإلا ستصبح أحلامنا كوابيس للآخرين. الرقّة في صوت الفتاة، تستطيع أن تجلسني إلى هذه الطاولة حتى الصباح. تستطيع أن تقنعني بأشياء لا يتقبّلها عقلي، وأن تمنحني ماضيًا جديدًا. اشتدت برودة الجو، تقول، هلّا ذهبنا إلى بار دافئ ونستمع إلى الموسيقى قليلًا؟ نمشي بهدوء كأصدقاء منذ فترة طويلة، نتدرج في الشوارع معًا. نمرّ من أمام الواجهات الزجاجية لمحلات مغلقة، ومن جانب ملصقات شُخْبِط عليها. نصل إلى شارع تنبعث منه رائحة القيء، ندخل من باب مضاء. نجلس إلى طاولة. يأتي نادل ويخاطبني مباشرة. أهلا وسهلا بكم سيد بوراتين، يقول، لقد أسعدنا حضوركم إلينا. ما الذي ترغبون بشربه؟ نأخذ مشروبنا من البار، أقول. كلا، يقول، إن أذنت لي، أحضره لك بنفسي. نريد بيرة وماء معدنيًا. نلقي نظرة على الطاولات الأخرى. نستمع إلى عزف الفرقة الموسيقية لأغنية روك على المسرح. نغيب عن ما حولنا من زحام شيئًا فشيئًا، ونبقى وحدنا متقاربين. نحاول سماع أصوات بعضنا رغم الصخب حولنا. نتحدث عن الأغاني والكتب. إذا ما استمرت الموسيقى على حيويتها، فليلنا الذي استهللناه بـ"أ"، ربما سيستمر حتى "ي"! تتوقف الموسيقى مع مشروبنا الثالث. يبدو أن أصدقائي ينوون استقبال الصباح هنا. أشعر بالإرهاق. أشكرهم على الليلة الجميلة. أنهض من مكاني. ينهضون معي ويعانقونني فردًا فردًا كأصدقاء منذ أربعين عامًا.

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عند خروجي من البار، أواجه بصقيع الصبح الحاد. أرفع رأسي، أنظر إلى السماء عسى أن أرى سحابًا يبشّر بهطول المطر. أواجه بسماء برّاقة. الوقت مضى بسرعة مذهلة. الشارع ساكن. أدس يديّ في جيبيّ وأمشي متجهًا نحو الشارع الرئيسي. أشعر بورقة في جيبي. أخرجها، وأنظر إلى رقم الهاتف الذي أعطته لي الفتاة ذات الفستان الأزرق. أرقام واسم كُتب بأحرف دقيقة. ألقي بالورقة في أول حاوية قمامة أراها في الشارع. أنظر حولي كأن الجميع يراقبني. خلا الشارع من زحامه الشديد المندفع، إلا من بعض العابرين. يمر من أمامي بعض المارة، ويتقدّم آخرون من الناحية الأخرى. الجميع يتحركون بخطوات شاردة أيضًا. حين يختفي زحام الشارع، تخبو حيوية الناس أيضًا. يتلاشى حماسهم. يتمتمون مع أنفسهم. يبدون بائسين في أنوار مصابيح النيون المضاءة في واجهات البنوك. حين يشارف الليل على الرحيل، لا يعرفون إلى أين سيذهبون. أنظر إلى وجوه المارين إلى جواري. تركت الرثاء لحالي وبتّ أرثي لحالهم. بعد أن تجاوزت بضعة شوارع جانبية، أترك الجادة وأسلك طريقي المعتاد نحو البيت. أطفئ ظمئي من سبيل ماء قديم. أمرّ بين كلبين متمددين على الأرض. أحصي عدد النوافذ المضاءة في البنايات. حين أنعطف عند زاوية جامع صغير، أفزع من صوت قادم من الظلمة. متسول مسن أسفل الجدار، أمعك سجائر يا شاب؟ يقول. لقد أخفتني، أقول. أريد سيجارة واحدة فقط، يقول. يجلس ملتفًا ببطانية في ناحية من الجدار لا يصلها الضوء، كأنه ينتظر مروري من تلك الناحية منذ زمن طويل. أخرج علبة السجائر من جيبي وأعطيها له. خذ العلبة كلها، أقول. هل قلت كل العلبة؟ يسأل مندهشًا. أجل، أجيبه. هل أنت ثمل؟ يقول متسائلًا. كلا، أقول. في تلك الأثناء، يُرفع أذان الفجر. تحلّق الزرازير والغربان. خيالات قادمة من نهاية الشارع، تدخل الجامع. أنحني إلى جوار المتسول. أخرج محفظتي، أسحب أول ورقة نقدية تلمسها أصابعي في الظلمة، وأناولها له. يأخذ قطعة النقود دون أن ينبس ببنت شفة.

ينتظر حتى انتهاء الأذان ليقول، بارك الله فيك. هل أنت راضٍ بحالك هذه؟ أسأله. هل أنت ثمل؟ يسألني ثانية. كلا، أقول، تشممني لتتأكد من ذلك. يقرّب أنفه من وجهي ويتشمّم. معك حق، يقول. من يقدّم لك العون؟ الله يعين كل محتاج بالطريقة التي يراها مناسبة، كأن يبعث شخصًا لا أعرفه لمساعدتي مثلك، يقول. يمسّد لحيته. لا لحية لي، أقول. قد يبعثه بلحية أحيانًا وبلا لحية أحيانًا أخرى، وقد يبعثه في هيئة شاب أحيانًا، أو في هيئة مسن في أحيان أخرى، وربما في هيئة امرأة أحيانًا. حسنًا، ومن يرسل المسيئين إليك، أقول. يمسّد لحيته. لابد أنه أخي، ذلك الجاحد، يقول. لماذا؟ أقول. الإساءة لا تحتاج لسبب، يقول. في رأيك، هل أنا رجل طيب؟ أسأل. يمسّد لحيته. لا أظنك عكس ذلك، يقول. آمل أنك على حق، أقول. هل تعلم؟ يقول، في البداية كان لله أمانة. عرضها على السموات والأرض والجبال. أبين أن يحملنها وأشفقن منها. حملها الإنسان. في الحقيقة، إنه منذ ذلك الزمان، كان ظلومًا جهولًا. حوّل الدنيا إلى زنزانة. في النهاية، نسي ما هي الأمانة. لا نعلم الآن، من يحمل تلك الأمانة المنسية الآن. ربما أنت من تحملها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قبل أن يجدوا تلك الكلمة

16

لا يتمكن من تحديد مصدر الأصوات. هل تأتي من الخارج، أم من الأحلام؟ يتريّث بوراتين قبل أن يفتح عينيه. يحاول استئناف نومه. لا يمرّ وقت طويل حتى تتجدّد الأصوات، ينهض ويغادر السرير. يمشي إلى الصالة بخطى متئدة. يرى بيك واقفًا أمام النافذة وينظر إلى الخارج. أهلًا وسهلًا بك يا بيك، يقول. هل استيقظت يا بوراتين؟ أجل، متى أتيت؟ منذ ساعتين. لِمَ لم توقظني؟ حين لم توقظك ما أحدثته من ضجة، أدركت أنك لم تنم منذ فترة طويلة. معك حق، منذ ثلاثة أيام أغفو بشكل متقطع، لكنني اليوم، نمت مِلْء جفوني. يرفع بيك كأس الشاي الذي بيده مشيرًا، سأصب لك كأسًا من الشاي، يقول. لا بأس، كم الساعة الآن؟ العاشرة. عجبًا! لِمَ أتيت مبكرًا؟ اتصلت بك بالهاتف أولًا، هاتفك الجوال مغلق دائمًا. اتصلت على الهاتف الأرضي، فلم تسمعه. أسرعت بالمجيء إلى هنا. فتحت الباب بالمفتاح الذي معي. يقطع بيك كلامه، ويذهب إلى المطبخ. يعود حاملًا كأسًا أخرى من الشاي. يناول بوراتين الكأس. بوراتين، أتيت لأحمل إليك خبرًا. لقد توفى أحد معارفك، يقول. دخل المستشفى منذ عدة أشهر، من أجل العلاج من السرطان. ستقام مراسم دفنه اليوم. ينظر بوراتين إلى كأس الشاي في يده. يعرف أن صورة السقف والثريا وصورته أيضًا تنعكس على سطح الشاي، لكن لا شيء يبدو له سوى لمعان متموج. صورة صديقه المتوفى في الكأس أيضًا، بين التموج الأصفر والأحمر والأرجواني. من توفى، أقريب لي ، أم صديق؟ صديق طفولتك. لم تلتقيا منذ سنين طويلة. حتى أنت لم تكن تعلم عن إقامته في إسطنبول. أخبرتك أختك بدخوله المستشفى فذهبنا إلى المستشفى معًا. أسعدته رؤيتك جدًا. تابعت زيارته كل أسبوع. ذلك أمر سيّئ جدًا، يا بيك. ما السيّئ في ذلك، يا بوراتين؟ أترى؟ لقد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذهبت لزيارته بشكل منتظم، مما يعني أن ماضينا المشترك قد أسعده، ثم فجأة، أقصد بعد فقداني لذاكرتي، انقطعت عن زيارته. ألم يتساءل، ألم يعتقد أني قد تخليت عنه؟ كلا، يا بوراتين، لم يظن ذلك. لقد تابعت زيارته بدلًا منك. قلت له إنك قد غادرت البلاد على عجل لأمور تتعلق بعملك، وستعود خلال فترة وجيزة. يزفر بوراتين نفسًا دفينًا، ويقول، بيك، أنت صديق مخلص حتى أثناء غيابي. أنت على رأس القائمة بما يجب الوثوق بها في حياتي الجديدة. لا تبالغ يا بوراتين، أنا دائمًا كما أنا، وأنت أيضًا دائمًا كما أنت. ما الأمر، يا بيك، تتحدث طويلًا عن صديق لي، لكنك لا تخبرني عن اسمه. أقع في حيرة من أمري، أيجب أن أعرف اسم صديقي أم لا. يراودني الشعور بأنه شخص عائد إلى الماضي فقط، وسيبقى في دنياي الماضية كشخص فقدته، مثل عشرات بل مئات الأشخاص الذين امّحوا من ذاكرتي. لا وجود له اليوم، ولا مكان له في غدي. ما رأيك بما يجب علينا عمله؟ أرى أنه ينبغي عليك معرفة اسمه. قل إذن، ماذا كان اسمه؟ ظافر. يشخص بصر بوراتين نحو كأس الشاي في يده. ألوان الشاي الحمراء تتموّج. ما الذي يمكنني فعله من أجل ظافر؟ لا شيء يمكنك فعله. لا داعي لحضورك جنازته، يظنون أنك خارج البلاد. إن تحضر، ستواجه من يعرفك من أقاربه لا محالة، لكنك لن تتمكن من معرفة أحد. ينبغي أن لا توقع نفسك في مثل هذا الحرج، مع ذلك، كان ينبغي عليّ المجيء وإخبارك. كنت ستلومني إن لم أخبرك حين تعلم بوفاته يومًا ما. يحتسي بوراتين أول رشفة من الشاي. أريد حضور الجنازة، يقول.

حين يدخلان إلى باحة الجامع عند الظهيرة، يواجهان بحشد كبير. أكاليل التعازي تغطي الجدار الجانبي على امتداده، وحتى الحائط خلف النعش. يبدو من وجوه الحاضرين أن ظافرًا كان شخصًا معروفًا ومحبوبًا. البعض يبكي، والبعض الآخر يتعانق حزنًا. شكّلوا مجموعات

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صغيرة، يتحدثون فيما بينهم بكلمات مقتضبة وبصوت خافت. رجل في منتصف العمر، يقف قرب النعش، ويوجّه الآخرين. هذا الخال أحمد، خال ظافر، يقول بيك. حين يرى خال ظافر بوراتين يتقدم نحوه ويحضنه. لا يتمكن بوراتين من الكلام إلى أن يخلّص نفسه من بين ذراعيه. عظّم الله أجركم، يا خال أحمد، عدت من السفر هذا الصباح، وما إن سمعت بالخبر حتى هرعت إلى هنا. شكر الله سعيكم يا بوراتين. لا أدري ما ينبغي أن أقول في هذه المناسبة الحزينة، أأقول من حسن الحظ أنك عدت اليوم؟ على أية حال، سنأخذه إلى نهيرجة بعد صلاة الجنازة. لقد أوصى ظافر أن يدفن هناك. هل ستأتي معنا؟ يدخل بيك بينهما في تلك اللحظة، ويعانق الخال، عظم الله أجركم، يقول. شكر الله سعيكم يا بيك. في تلك الأثناء، يقترب زوجان مسنان. يذهب الخال ويقبل يديهما. يجد بوراتين في ذلك فرصة كي يغيب بين الزحام، يتبعه بيك، ويغيبان عن الأنظار. الاجواء المتلبدة بالغيوم تضفي عتمة على جو الحداد، رغم أن النهار في منتصفه. تتساقط آخر أوراق الأشجار العالية. الوجوه عابسة، والأصوات خافتة، والحركات بطيئة. يتقدَم بوراتين وبيك مع الجدار، ويقفان بعيدًا في مكان حيث يمكنهما رؤية النعش. صورة لوجه متبسّم لظافر أمام النعش. لحيته قصيرة وعصرية، ويضع "الجل" على شعر رأسه، ونظارة أنيقة على عينيه. بيك، ماذا كان ظافر يعمل؟ مصمم أزياء. أكان متزوجًا، ولديه أطفال؟ خطب فتاة ثم انفصلا قبل فترة وجيزة من دخوله المستشفى. من كانت خطيبته، هل كنت أعرفها؟ كلا، لم تكن تعرفها. بينما يوجه بوراتين السؤال تلو السؤال إلى بيك، يحتفظ لنفسه بالسؤال الرئيسي الدائر في ذهنه: لماذا لست أنا من أسجّى داخل النعش، لا من يقف خارجه وينظر إليه؟ كما يتساءل إن كانت أناقة لباس الناس من حوله احترامًا للميت، أم ترجع إلى عالمه في مجال تصميم الأزياء. ما الذي كنت سأفكر به لو كنت الآن أرقد داخل هذا النعش الآن، وأنظر إلى هؤلاء الناس خارجه؟ هل كنت سأشعر بالامتنان لمجيء الكل بلباس

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يليق بي، أم كنت سأشعر بالحزن على موتي وبقائهم أحياء؟ ربما كنت سأشعر بالسعادة. كنت سأمضي دقائقي الأخيرة بالرقود في النعش بين أصوات من أحب، وأشعر بسكينة لا يدركها الأحياء. أعرف أن حزنهم سينقضي خلال فترة قصيرة. زماني وزمانهم، سيمضي بسرعة مواراتي التراب نفسها. عندما يُهال التراب على جسدي، أغادر زمن الأحياء وأنتقل إلى زمن الأموات. أنظر إلى خارج النعش، أدقّق بوجوه الموجودين في باحة المسجد واحدًا واحدًا، وأفهم حقيقة ما في قلوب الجميع. أنظر إلى النعش، وأفكر بأن الحقيقة لا تُرى سوى بعيون الموتى، مما سأمنح الفرصة لمعرفة من كان صديقي، ومن خانني، ومن فقد ذاكرته فنساني. كما أني لن ألوم من سينساني قريبًا، لأنني سأنساهم قبل أن ينسوني. لا أزال أتساءل عن جواب لسؤالي الأخير الدائر في ذهني: لماذا لست أنا من أسجّى داخل النعش، لا من يقف خارجه وسط هذا الزحام، وينظر إليه؟ الكلمات المتناقلة على الألسن شيء، والكلمات العالقة في الأذهان شيء آخر. الشفاه المطبقة ترتعش متوتّرة من جو الحداد، وتتبسّم في الوقت نفسه. يزداد الزحام في الباحة، وتضاف أكاليل جديدة إلى صف الأكاليل إلى الجدار. يلتقط الصحفيون صورًا للنعش وللوجوه المختنقة بالدموع. بعد أن انسلّ بوراتين إلى الخلف، يلاحظ امرأة تدخل ومرافقين لها من باب الباحة. إنها المرأة ذات الشعر الطويل نفسها التي سبق أن رآها في المقهى عند برج غلاطة. إنها المرأة التي أقلقته نظراتها، ودعته بالغبي حين ارتطم بها في وسط الطريق. كان قد فكّر بها في الأيام التي تلت الحادثة، وحاول أن يتذكّر إن كان يعرفها في ماضيه، لكن محاولاته باءت بالفشل كالعادة. يتسلل بوراتين داخل الزحام، ويقول، من الأفضل أن نتوارى عن الأعين. لماذا يا بوراتين، يسأل بيك. أقصد الصحفيين حولنا يا بيك، قد يتعرّفون علينا، ويلتقطون صورًا لنا. تعال، لنقف جوار تلك الشجرة. يضع بوراتين نظارته وطاقيته. ينظر إلى الناس براحة أكثر من خلف نظارته السوداء. يحاول معرفة سبب التوتر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الظاهر على الوجوه حوله. لابد أن الفراق صعب. لابد من دفن الأموات سريعًا، كي يتمكن الأحياء من الانتشار ثانية في الشوارع. ليعود الكل إلى حياتهم المعتادة، لذلك يدخلون في صف الصلاة سريعًا. يقتربون من النعش، ويحنون رؤوسهم أمام الميت. لنخرج يا بيك، لنبتعد من هنا بينما خال ظافر يقف إلى الصلاة، لنذهب من هذه الناحية، مع امتداد الجدار. يمشيان بين أصوات الدعاء والنشيج. حين يصلان إلى باب الباحة، يلقيان نظرة أخيرة على زحام الرجال قرب النعش. بيك، يقول بوراتين، طبيبتي تقول ينبغي أن أكون مثل هؤلاء الناس. تنصحني باستعادة الماضي وأخذ عبرة منه لتوجيه حياتي القادمة، كما أن القيم الروحية تصقل نفوس البشر. أنظر إلى هذا الجمع يا بيك، برأيك هل صقلت القيم الروحية نفوسهم؟ هل أخذوا عبرة من الماضي؟ لقد رأيتهم قبل قليل، كيف ينظرون إلى صورة ظافر. يشعرون بالرضا لتحوله إلى مجرد صورة. تلك اللحظة الآنية بالنسبة لهم، ليست سوى صورة. شعوري بالخوف بسبب فقداني لذاكرتي يعادل خوفي من التشبّه بهؤلاء الناس. غدًا، عندي موعد مع الطبيبة، لكنني لا أنوي الذهاب. كفاني إرهاقًا من محادثتي الدائمة لنفسي، والطبيبة تزيدِني إرهاقًا بكلامها عن الماضي. بتّ أبغض ترديدها لكلمة الماضي. ما دمت قد نسيت الماضي، لأنسَ كلمة الماضي أيضًا. لتنقطع صلتي به إلى الأبد. تردّد الحجارة الرخامية للباحة، صوت بوراتين. يلتفت بعض الرجال، وينظرون إليه. اهدأ، يقول بيك، اهدأ، لنتحدث حول ذلك في الخارج، هل تمانع؟ لا. في تلك الأثناء يرن جوال بيك. يخرجان من الباحة بخطى سريعة. يمشيان على رصيف ضيق، بيك في المقدمة ومن خلفه بوراتين. يصلان إلى حديقة عند نهاية الشارع. حين ينهي بيك مكالمته الهاتفية، يجلسان على مقعد وسط الحديقة. بيك، ينظر بوراتين إلى السماء المتلبدة بالغيوم، ويقول، بيك، متى أمطرت آخر مرة؟ لا أذكر أنها أمطرت منذ عدة أشهر، لماذا سألت؟ ينتابني الفضول لرؤية المطر. أظن أنها تمطر أحيانًا، أثناء نومي، فأنهض

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في منتصف الليل، وأنظر من النافذة. هل يهطل المطر من تلقاء نفسه، ألا يجب أن أقوم بعمل شيء ما. كلا يا بوراتين، المطر يهطل من تلقاء نفسه. تأخّر هطول المطر هذه السنة، في العادة، الخريف هو موسم الأمطار في إسطنبول. يهطل في مثل هذه الأيام. حين يبدأ بالهطول، لا يتوقف. ستشعر بالسأم. لقد سئمت من كل شيء يا بيك، ولا ضير من سأمي من المطر أيضًا، يكفيني أن أراها تمطر. لا أخرج من البيت منذ أيام طويلة، أمضيها بالتنقل وحدي بين الغرف، وحين أخرج من البيت للتنزه قليلًا، ما يمرّ معي من أحداث خارج البيت لبضع ساعات، يشوّش ذهني ويشغل تفكيري لعدة أيام. أخبرتني هذا الصباح، عن شخص يدعى ظافر. حضرنا جنازته. تحدثنا مع خاله، وكاد أن يُكرهني على الذهاب معه إلى نهيرجة. توارينا عن أعين الصحفيين. رأيت وجوهًا حولي، بدت لي مألوفة، كما أن المطر لم يهطل اليوم أيضًا. هذه الأحداث ترهقني. عُقَدٌ لا أجد حلًا لها، وتشوّش ذهني على مدى الأيام المقبلة. حتى جلساتي مع الطبيبة لا تُجدي سوى بزيادة الأمور تعقيدًا. لا أصدّق كلام أحد سواك يا بيك، لكن حين لا تكون معي، يتبخّر كلامك، ويفقد تأثيره. عندئذ، أشعر بالقنوط. بوراتين، لا ترهق نفسك بالتفكير. كلامك هذا لا يقلقني. أدرك أنك بحاجة إلى الوقت. أتحدث مع طبيبتك، وأستشيرها على الدوام. تقول إن علينا التحلي بالصبر. بيك، هل تتحدث الطبيبة معك عن التحلي بالصبر أيضًا؟ أجل. طالما تقول الطبيبة إن الحل بالتحلي بالصبر، فلنصبر ونرى، ولنصبر أيضًا، كي نرى هطول المطر، أليس كذلك؟ بوراتين، هناك أمر آخر، أريد أن أخبرك به. أخبر جيد، أم سيّئ يا بيك؟ لا تقلق، خبر حسن. ما هو؟ أتعلم أن سوزان من اتصلت بي قبل قليل؟ من هي سوزان؟ صديقتك القديمة. اتصلت من ألمانيا، وستأتي إلى إسطنبول قريبًا. ترغب برؤيتك. أتعرف عن حالي؟ نعم. يصمتان. ينظران إلى الغيوم الكثيفة التي تحجب السماء. يريان وميض برق يلمع ويختفي في البعيد. يتابعان النظر في الأفق بانتظار تجدّد لمعان البرق. ما رأيك يا بيك، أينبغي أن ألتقي بها؟ أجل، يا

بوراتين، من الأفضل أن تراها. لماذا؟ هل ألتقي بها من أجل أن يُفتح باب ذاكرتي، أم من أجل أن نعود إلى علاقتنا السابقة؟ ما الذي تخطّط له؟ أخبرني يا بيك. لا هذا ولا ذاك يا بوراتين، لا أرى ما يمنعك من اللقاء بها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنزل المرآة عن الحائط. أضعها على الأرض بحذر. طول المرآة قريب من طول قامتي. ثقيلة، ومغبرّة. بدأت بكشف ما عندها من أسرار. اسوَدّ إطارها المصنوع من خشب الجوز المزخرف بنقوش لأغصان الورد المتشابكة، على امتداده. أفكر بمكان مناسب أنقل إليه المرآة. قد أضعها تحت السرير أو خلف الخزانة. في مكان لا تُرى فيه. قد أطلي الجدار لإخفاء آثار تركها إطارها عليه. قد أتخلّص من المرآة أيضًا. لا حدود لذاكرة المرآة. تحتفظ بكل شيء تراه وتسجّله. تحتفظ لنفسها بحالتي القديمة، بحالتي في العري، وحالتي أثناء النوم. تعرف حالتي أثناء النوم، رغم عدم معرفتي بها. لا تنام أبدًا، وحين تُطفأ الأنوار، تبحث عن لمعان ضئيل ونفس مخنوق. لا تبرح مكانها، بل تنتظر أن يأتي إليها كل من يتحرك على سطح هذه الأرض الدوّارة. صبورة. تستطيع أن تضمَ إلى داخلها كل المدينة. أدرك ذلك، لكن المدينة لا تعنيني بل ما احتفظت به من ماضيّ. كلما أقف أمام المرآة، تلاحقني نظرات بوراتين القديم. وجه بوراتين في المرآة هو وجهي نفسه، لكن نظراته غريبة. لا أحد يمكنه مساعدتي بفهم هذا الفارق سواه. قد يكشف لي الطريق بغمزة من عينه، أو ليّة من شفته. يعرفني، وربما يظنني صورته في المرآة أيضًا. يحاول فهم الاختلاف بيننا. يتوقّف منتظرًا. لا أعرف ما الذي ينتظره. أنتظر مثله، لأيام، وأسابيع. الأصباح تُكرّر بعضها، والليالي تتشابه، ولون السماء يتنقل ما بين الأزرق والرمادي. لا نية للخريف بالرحيل أبدًا. مذ فتحت عينيَ في المستشفى ونحن في الموسم ذاته. لا أستطيع الرجوع إلى الصيف، ولا التقدم إلى الشتاء. أدعو القنوط صبرًا. حين تعتم السماء في الليل وتشتد الرياح، أسمع أحيانًا، أصوات حفرٍ لعمال مناجم في المرآة. أصواتًا شديدة لتكسير الصخور قادمة من أعماق الأرض. منجمُ حُفر منذ آلاف السنين. رائحة رطوبة. الصخور تصخّ مع وقع الضربات الحادة. كل

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

صوت يصدر من الصخور تقابله كلمة معينة. كلمات كنت أعرف معانيها، لكنها الآن، تبدو غريبة لي كلغة السومريين، كلمات لا تحاول النزول إلى أسفل الأرض بل تحاول الصعود إلى أعلاها. وميض يلمع في المرآة، يرافق صوت كل ضربة، ويختفي. أتوه في الومضات اللامعة كالنجوم هنا وهناك. لون السقف كلون السماء المتلبّدة بالغيوم. الريح القادمة من باب الشرفة تهب داخل المرآة، وتندفع في الأعماق. عندما أقف أمام المرآة، كل شيء يبدو لي ظاهريًا. سريري وباب الشرفة والستارة التولية، كلّ يبدو في مكانه. الحياة كما كانت في الماضي، لكن ليتني أستطيع فهم الأصوات القادمة من تحت الأرض، والكلمات المرتدّة عن الصخور. نسيت ماضيَ مع لغتي القديمة أيضًا. يخاطب الإنسان الآخرين بلغة، ويخاطب نفسه بلغة أخرى. قد يكون خطابه مع نفسه وديًا، ومع الآخرين عدائيًا. قد يكون خطابه مع نفسه سموحًا، ومع الآخرين جائرًا. فتحت عينيَ في مستشفى. أتيت إلى بيت. التقيت بعدد من الأشخاص. لا شيء سوى ذلك. لم أستطع أن أجد لغة أفهم بها نفسي. أنتظر منذ ليالٍ، أن أجد هذه اللغة في المرآة. أتناول طعامي أمام المرآة، أجلس، أنام، أستيقظ، أكرر ما فعلته في اليوم السابق، أشك فِي نفسي، لأن بوراتين الذي في المرآة، ينظر إليّ بريبة. ما هو ذنبي؟ لا أحد يمكنه معرفة ما قبل ولادته. أنا أيضًا، لا أعرف ما قبل حالتي هذه. هل ينبغي أن أعرف؟ لست واثقًا من ذلك. أصل إلى قناعة أن تاريخ الإنسان والمدن لم يخلق ليُذكر، لكن ليُنسَ. الأمس هو أقصى ما في الماضي. صُلب السيد المسيح يوم أمس، وهُدمت روما يوم أمس، فُتحت إسطنبول يوم أمس. الماضي هو الأمس، وما سبق الأمس فقد تم نسيانه. لكن المرآة لا تنسى شيئًا.

أحمل المرآة وأضعها إلى جانب السرير، أدير وجهها نحو باب الشرفة. أنظر إلى منظر إسطنبول في المرآة. برج بايزيد يرتفع في السماء. تلتحم أسقف قصر توبكابي مع أشجار حديقة غولهانة. سفن عديدة المحركات

ترسو الآن، في خليج القرن الذهبي حيث رست قبل آلاف السنين، سفن ضخمة عديدة المجاديف. لا تُظهر المرآة الأبنية الخشبية التي تحولت إلى رماد في آخر حريق شهدته إسطنبول، ولا تكشف عن جثث الثوار التي عُلّقت على أشجار حديقة غولهانة في القرون الماضية. تحتفظ بالماضي، لكنها لا تعكس سوى الوقت الحاضر فقط. هذا يكفي، تقول المرآة، يكفيكم رؤية الحاضر. الغسيل المعلّق على الحبل في الشرفة المقابلة، وملاءات لأسرّة غُسلت حديثًا، تلعب مع رياح الخريف. طيور تحوم محلّقة حول المصابيح المضيئة. قد أكتفي بذلك، قد آلف هذه المدينة ونفسي. قد أتابع حياتي مع ضلع مكسور وذاكرة خاوية وبلا خطيئة. لا شيء سوى ذلك، لكنني أردت معرفة أمر واحد فقط: ماذا يوجد في الحياة كي ينتحر المرء من أجله؟ لماذا ينتحر المرء، بينما الموت ليس سوى كلمة؟ لا يستطيع الناس معرفة الموت قبل أن يجدوا تلك الكلمة. الحيوانات لا تعرف الماضي. تعيش وتموت فقط. الإنسان من ابتدع الماضي. ابتدعه بالكلمات فقط. توافق الإنسان حول خريطة الماضي أحيانًا، وتخاصم أحيانًا، وسفح الدماء في أحايين أخرى. تعرف المرآة ذلك جيدًا، لكنها لا تخفي الماضي بلا مبرِر، عندما تعكس أبنية وأشجار الضفة الأخرى لإسطنبول. قد يكون هذا سبب صمتها. تتحاشى عرض خريطة لماضٍ رُسمت بالمعاناة حدوده وبحيراته الحزينة وسلاسل جباله الخطرة. تريد دفن ماضيّ في رمال الصحراء. تتلاعب ملاءات الأسرّة في المرآة. الغيوم تغطي السماء. البواخر تحمل آخر ركابها بين ضفتي البوسفور. يبهت لون أوراق الشجر في الشرفة. أنظر إلى أوراق الشجر، فأرى كسرات من قشور البيض على أرضية الشرفة. ينتابني الشك، وأشعر بالحيرة من وجود البيض على الأرضية الإسمنتية. أنقل نظري من المرآة إلى الشرفة. ضوء الغرفة ينير الشرفة. أرى الحاجز الحديدي، وأوراق الشجر، وقشور البيض المتناثرة. أذهب إلى باب الشرفة. أمعن النظر في بيضتين صغيرتين، تفتت قشورها البيضاء، وجف ما بداخلها،

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعلاه الغبار. أجثو. أتريّث من حيرة بما ينبغي فعله، دون مبالاة بشعوري بالبرد. في البعيد، منارة البحر تضيء وتنطفئ تباعًا. في السماء، طائرة تمر بضوئها الخابي. ألتقط إحدى أوراق الشجر. أفتّت ورقة الشجر الجافة في كفي. أتردّد في النظر إلى عش الحمامة في الجهة اليسرى. لا أرى الحمامة في مكانها. أنهض. أدوس أوراق الشجر بقدميّ الحافيتين، وأصعد على الحاجز الحديدي للشرفة. لا بيض في العش. لا مجال للشك. لقد سقط البيض على الأرض من العش، أو بالأحرى أُسقط منه. من فعل ذلك؟ لو أوقعتها الغربان، أو النوارس، أو البوم المختبئ في زوايا أسطح الأبنية، لأكلتها وما تركتها لتجف. ربما الحمامة من فعل ذلك؟ ربما البيض غير صالح للإفراخ. أدركت الحمامة ذلك، فرمتها من العش. أفرغت العش الذي بنته بجهد جهيد، وطارت بعيدًا. أفكر باحتمال آخر. ربما لا مشكلة بالبيض، لكن حين كانت الحمامة ترقد فوق البيض في عشها، وسيارات أواخر الليل المتعبة تمرّ من الجادة؛ والبيوت تغطّ بالنوم؛ يأتي من بعيد، صوت صفارة سفينة شحن من بعيد؛ تخرج الحمامة من عشها منزعجة، وتقف إلى جواره، تتأمل البيض كأنها تراه أول مرة، ثم ترفع رأسها نحو السماء. لا تنتظر طويلًا، تحمل إحدى البِيضات وتلقيها في الشرفة، ثم تتبعها بالأخرى لسبب لا يعرفه سواها. نظرت إلى البيض المكسور منتشرًا على الأرضية الإسمنتية، ثم طارت بعيدًا.

أغطي البيض بأوراق الشجر. يجدر مواراة أفراخ الحمامة بأوراق الشجر حتى لو لم تولد بعد. تتحوّل الشرفة إلى حفرة قبر رطبة. أرفع رأسي؛ أنظر إلى المرآة إلى جوار السرير. بوراتين الذي في المرآة، يراقبني بين أوراق الشجر. قدماه حافيتان، وشعره قد غطى وجهه. أبعد شعري عن وجهي بيدي؛ أقف وأنفض ثيابي. أدخل الغرفة وأغلق باب الشرفة. حينئذ، أشعر بالبرد. أجلس على السرير إلى جوار المرآة. أضع يدي على كتف المرآة كصديقين. لا حركة في الشارع سوى صوت

سيارات متقطع من حين لآخر. من شدة إرهاق عقلي، لا أذكر إن كنت قد تناولت دوائي المسائي أم لا. إن كنت قد تناولت دوائي، لا يبدو أي تأثير منوم له. أنهض من مكاني على وجه السرعة، أذهب إلى المطبخ، أتناول زجاجة ماء من الثلاجة. أترك ضوء المطبخ منارًا وأذهب إلى الصالة. أمشي ذهابًا وإيابًا تحت بريق القطع الكريستالية للثريا. لا أحصي عدد خطواتي مثلما أفعل دائمًا. لا طاقة لي على ذلك. أعود إلى غرفة النوم مستندًا بيدي على حائط الردهة كي لا أقع على الأرض من شدَة الإرهاق. أتناول أدويتي عن الطاولة الجانبية. ألقي حبة في فمي وأبلعها مع كمية كبيرة من الماء. حبة من زجاجة أخرى، وحبة أخرى من الزجاجة الأخيرة. أصل إلى نهاية اليوم مع كمية كبيرة من الماء، وأدويتي الليلية، كحكايات الأطفال قبل النوم. أتهيأ للنوم، أو ربما أتهيأ على نية النوم. ربما تكون هذه الليلة التي سأصحو بعدها وقد عرفت نفسي. سأتذكر كل ماضيّ وطفولتي؛ أضع أسطوانة في الحاكي؛ أفتح هاتفي الجوال، وأكتب رسالة إلى هيالا ردًا على رسائلها؛ وربما أردد في داخلي أول لحن من مقطوعة موسيقية. أعشّم نفسي. أشرب الماء المتبقي في قعر الزجاجة. أترك الزجاجة الفارغة على السرير. أنهض وأحمل المرآة، وأعيدها إلى مكانها السابق. أردت التخلص من المرآة التي سرقت النوم من عيني، وشوشت فكري، وأخفت ماضيّ عني. ظننت أني سأتمكن هكذا من هزم قنوطي. عقلي يتشوّش. أفكاري تتغيّر ثانية. ما كنت أظنه من علة في وجود المرآة هنا قبل قليل، أرى الآن أن العلّة في وجودي أنا. كشيء لا لزوم له في هذه الغرفة ليست المرآة بل أنا. السرير، والستارة، والخزانة، والمنضدة الجانبية، والمصباح، والمرآة في حالة تناسق. كلها كانت هنا قبل مجيئي. حديد الشرفة، والشرفة المقابلة، ورائحة البحر الملحية كانت هنا. إنصافي لنفسي يمر من إنصافيْ للمرآة، ترى كل شيء، تمتصه كالإسفنج إلى داخلها. ذات يوم حين أتعافى (هل سأتعافى؟) سأضع هذه المرآة إلى جانبي. سأستودعها سر حياتي الجديدة كما حياتي الماضية.

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم تخطئ بحقي، بل أنا من أخطأت بحق نفسي. أفكر الآن، على هذا النحو، لكن تفكيري هذا قد يتغيّر في الغد. أخشى أن أفكر بالموت ثانية. أخشى من أصدقائي القدامى. ما دمت قد أردت التخلص من حياتي، فلابد من وجود سبب خفي وراء ذلك، في حياتي الماضية، ربما يتعلق بأحد معارفي القدامى. أراني كمن يبحث عن إبرة في كوم من القش. الكل يتحدث عن مدى طيبتي، عن حياتي بلا عقبات، وعن سعادتي. لماذا أردت الموت إذن، وألقيت نفسي عن الجسر، كي أصبح طعامًا للسمك في قاع البحر؟ أن أصبح طعامًا للسمك؟ أظن أن ذلك لم يخطر لي، وإلا تخليت عن فكرة الموت (أكنت سأتخلى؟). أقترب من المرآة، وأدقق في ملامح وجهي، في أنفي، وعيني، وشفتي. وجهي بلا روح كي يستوجب الموت، وجميل كي لا يستوجب أن يكون طعامًا للسمك. أمسك المرآة بكلتا يدي وأعلقها في مكانها على الحائط نفسه. أتراجع إلى الخلف وأتأمل نفسي. بوراتين الذي في المرآة، يبدو هادئًا. أحاول التحدث معه ثانية. مرحبا، أقول. مرحبا، يقول. أنا موسيقار، أقول. أنا موسيقار، يقول. أنا بخير، أقول. أنا بخير، يقول. نتحدث في اللحظة نفسها، لا ندرك من يكرّر قول الآخر. قد نلعب هذه اللعبة كِل يوم، قد ننجح حتى بتبادل الضحك في أحد الأيام. أحبك، أقول. أحبك، يقول. أكرّر ما أقول، يكرّر ما أقول. أخشى أن أتذكر كل شيء، وأصبح مثل كورش الملك الفارسي الذي يعرف أسماء كل جنوده. لا أخشى من رؤية نفسي في المرآة، بل من رؤية الآخرين لي في المرآة. قد أعتاد على نفسي، وأكتفي بالقليل: جيتار واحد، وأخت واحدة، وبضعة أصدقاء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عندما أجلس في الصالة، يتراءى لي أحيانًا، أنها متخمة بالأرائك، والخزائن، وانتهاء بكتب لم أقرأها. لو أرفع بعضًا منها وأتخلص منها، سيبدو البيت أكثر سعة وراحة، وفي أحايين أخرى، أرى الصالة ينقصها الكثير من المتاع، وينبغي إحضارها. أشعر بالفراغ حولي، لكنني لا أعرف ما هي هذه النواقص، وما الذي ينبغي إحضاره. أعدّ قائمة طويلة: جهاز تلفزيون، وزهرية، وكرسي هزاز، ومصباح طاولة. أفكّر برفع أغلفة الاسطوانات عن الحائط وطليه بلون آخر. قد أعلّق لوحة فنية لأحد معالم إسطنبول بدلًا من الأسطوانات، أو صورة لأختي. أستطيع تجسيد صورة لإسطنبول القديمة في ذهني، لكنني لا أتمكن من وضع صورة لوجه أختي. لا صورة لها لدي. كيف هي معالمها يا ترى؟ لابد أنها تشبهني. صوتها يشبه صوت بيسي سميث، وربما في وجهها شبه لوجهه أيضًا. امرأة تحمل معالم من بوراتين وبيسي سميث. أتحب الموسيقى، يا ترى؟ قد أسألها يومًا ما. آخذ دفتر أرقام الهواتف، أجد رقم هاتف أختي. ما عدت أخلط بينه وبين الأرقام الأخرى، فقد كتبت اسمها في الأيام الأخيرة، إلى جانب رقمها. أسحب الهاتفَ الأحمر والأسود، وأضعه على ركبتيّ. أدير الرقم الأول. تصدر الأصوات من السماعة، وتنطلق تحت أرض المدينة، عبر أسلاك الهاتف، وتقطع الجبال والغابات والسهول. تنزلق الأرقام كالديدان في التربة الرطبة. ملايين الديدان، تبحث عن طريقها تحت الأرض، وحين تصل أرقامي العابقة برائحة الرطوبة بعد فترة، إلى هاتف البيت في الطرف الآخر، يشرع بالرنين. أعددت ما سأقوله مسبقًا. سأتكلم حتى لو سمعت في الهاتف صوتًا لا أعرفه. سأوجه الأسئلة هذه المرة، بدلًا من الإجابة على الأسئلة. سأدع الطرف الآخر يفكّر. ألو، تفضل... أختي؟ بوراتين... كيف حالك يا أختي؟ أنا بخير، أنا بخير، المهم أنت يا أخي، كيف حالك، لقد اتصلت أكثر من مرة، لم تكن في البيت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنا بخير، أعمل. لقد أخبروني أنك سافرت خارج البلاد وعدت. حقًا، من أخبرك بذلك؟ أهل ظافر أخبروني أنك حضرت جنازته قبل أيام. لقد أسعدهم رؤيتك في صلاة الجنازة في إسطنبول. كنت وظافر صديقين حميمين، أمضيتما طفولتكما معًا. أجل يا أختي، كنا دائمًا معًا. هل أكذب؟ لا يقال عن ذلك كذبًا. أسلّم بصحة ما يقال عن الماضي؛ أعتبره قد حصل. حقيقة مثلها كمثل دوران ماجلان حول الأرض، وأن دولشينيا كانت معشوقة دون كيشوت. سمعت ذلك من الآخرين، وصدقته. لِمَ لا أصدق ما سمعته عن حياتي الخاصة؟ بوراتين، لم أرَ ظافر منذ سنوات. غادر نهيرجة إلى إسطنبول ولم يعد. هل تغيّر كثيرًا؟ تطرح أختي أسئلة صعبة بكل بساطة. تلتقط أنفاسها بانتظار ردي. لا أدري بماذا أجيبها. تعلمين أني لم أره أيضًا منذ عدة سنوات. عندما زرت ظافر في المستشفى، وجدته قد تغيّر كثيرًا. لابد أن المرض قد غيّره. شحب لونه. حين يشحب لون المرء تختلف معالمه. بعد أن زرته أكثر من مرة، بدا كأن صحته في تحسن قليلًا، وبدا كأنه يعود إلى حالته القديمة. ظننت أنه يعود إلى حال ظافر الذي أعرفه. لكن إلى أي مدى يعود الإنسان إلى حالته القديمة؟ لابد أن هناك من حدود لذلك. إن ظل وجه شبه بين معالم وجه المرء القديمة والحالية، فضحكاته لن تحافظ على التشابه نفسه، ولا أسلوب كلامه أيضًا. بحر قد عبر، ومن عاد من حيث ذهب، لن يتمكن من العثور على نفسه. أختي، من يمكنه في هذه الدنيا أن يعود إلى حالته القديمة؟ ها أنت، تعود إلى حالتك القديمة يا بوراتين. كنت تقول أثناء مرحلتك الدراسية، مثل هذا الكلام العصي عليّ فهمه. لم تتحدث معي على هذا النحو منذ وقت طويل. كيف كنت أتحدث؟ أقصد أنك كنت تتكلم بصوت حزين قليلًا، كأنك تقرأ من كتاب... هل صوتي حزين الآن يا أختي؟ لا أرى ضيرًا في ذلك يا أخي، من الطبيعي أن تكون حزينًا لوفاة صديق طفولتك، لكن الإنسان لا يموت مع من مات، لا تبتئس. أختي، حين التقيت بظافر بعد سنوات، تحدثنا عن أيامنا القديمة، عن طفولتنا. هل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تعلمين أني لم أتذكر الكثير مما تحدث عنه، كما أنه لم يتذكر أيضًا، ما تحدثت عنه. عشنا الماضي معًا، لكن كلانا نظر إلى الماضي من زوايا مختلفة، ورأى أشياء مختلفة. كما أني أفكر الآن يا أختي، كيف ننظر معًا إلى ماضينا، وهل سنرى أشياء مختلفة؟ تتكلم بغرابة ثانية، يا بوراتين. حين تقول ثانية؟ تقصد كما كنت أتكلم في أيام الدراسة. لقد أعادك لقاؤك بظافر، إلى أيام طفولتك. أهذا ما يبدو، يا أختي؟ إذن لتعلمي أني قد أضعت تلك الأيام. ماذا تقصد؟ أقصد أن ما شاركته وظافر من أيام الطفولة قد ضاع مع وفاته. بوراتين، ما زالت تعيش معك. ها أنت الآن تتحدث عن تلك الأيام، إذن، لم تضع. لو تأتي إلى نهيرجة، ستتذكر أحداثًا أخرى، ستستعيد ثانية، ما تحدث عنه ظافر. تتكلم أختي كأنها تعرف سري. من أخبرها؟ قد تدرك ذلك من كلامي. إن لم آخذ حذري، قد أكشف نفسي. أختي، لم آتِ منذ وقت طويل، برأيك، هل سأجد تغيّرًا في نهيرجة إن أتيت لزيارتك؟ بوراتين، لم تكن تجد أي تغيير في نهيرجة عندما كنت تأتي مرة كل شهرين. قد تجد تغييرًا قليلًا، بعد غيابك الطويل هذا. ربما تجدني قد تغيرت أيضًا، وربما لن تتعرف عليّ. تطلق أختي ضحكة من أعماقها. بينما ضحكاتها تتردّد في السماعة، أقول، كلا، لم تتغيري، ضحكاتك لا تزال بالجمال نفسه. تتوقّف، تهدّئ من أنفاسها. بوراتين، تقول، أظن أنك لن تأتي قبل مضي ثلاث سنوات أخرى. ما الذي يدعوك لمثل هذا الظن، أقول. لو كنت تنوي المجيء، لجئت مع من أتى للمشاركة بمراسم دفن ظافر. أختي، لا يذهب الظن بك بعيدًا. لقد حزنت كثيرًا على وفاة ظافر. لقد أردت البقاء وحدي مع حزني، بدلا من مشاركة أقاربه بالبكاء. لذلك لم آتِ معهم. بوراتين، أنت مغموم جدًا. واضح أنك متعب جدًا أيضًا، أدرك ذلك من صوتك. إن ترغب، آتي إلى إسطنبول وأقيم عندك بضعة أيام، لأرعاك. أختي تعرفني. تفهمني من صوتي. لا داعي لتحملك مشقة السفر، على أية حال سآتي قريبًا. سأبقى هذه المرة، لفترة طويلة. بوراتين، تقول، يسعدني ذلك كثيرًا، ننتظرك على أحر من

الجمر. سيركا أيضًا، يفتقدك كثيرًا هذه الأيام. حين تقرر المجيء، لا تبذر مالك بشراء هدايا كثيرة لسيركا. سيسعده وجودك أكثر من الهدايا. يكفينا أن تحضر معك بعضًا من حلوى البشمانية. هل قلت بشمانية؟ أجل، تلك الحلوى التي تباع في القطارات. نوزّعها على جيراننا المسنين، ونقدّم معظمها للجدة كوكي المقيمة في الحديقة الخلفية. لقد فقدت أسنانها جميعها. تستطيع أكل البشمانية بسهولة. لقد تراجعت ذاكرتها في الأيام الأخيرة، بل فقدتها مع فقدانها لكل أسنانها. لا تتذكّر أي شيء أبدًا. حقًا، هل ساءت إلى هذه الدرجة؟ أقول. أجل، لا تتوقّف طوال اليوم، عن الغناء في حديقتها. لو أننا لا نقدم لها الطعام بانتظام، لنسيت الأكل أيضًا. حزنت من أجلها يا أختي، أشعر بالأسى لحال المرأة العجوز. هل تذكر ما قالته لك الجدة كوكي في زيارتك الأخيرة؟ ماذا قالت؟ بوراتين هل أنت أيضًا، بدأت بالنسيان؟ كلا يا أختي، أسناني ما زالت سليمة. يدخل الصمت بيننا. تأخذ أختي كلامي على محمل المزاح، فتنتظرني حتى أضحك. أنجح بقول الكذب، لكنني لا أنجح بافتعال الضحك فأقول، تلك حال الإنسان إذن، أنا معرض للنسيان أيضًا. تلك حال الإنسان، تكرّر أختي. لقد ذهبت لزيارة الجدة كوكي فِي زيارتك الأخيرة، بعد جنازة صهرك. حين رأتك في حديقتها، ظنّت أنك قاصد إلى قنّ الحمام كما كنت تفعل في السنوات الماضية. لقد قالت لك، ألا تشفق على الحمام يا بني؟ لا بأس من إطعامها، لكن لا تحبسها في القن، أطلِقها لتذهب أينما تشاء، وأجبتها بدورك، لقد أطلقت الحمام منذ سنين، وقد أتيت اليوم، لزيارتك. لم تصدقك، وظلت تكرّر: أطلق الحمام، يكفيك وشم الحمام على ظهرك. أحاول رسم صورة في ذهني لما تقوله أختي، دون أن أقطع كلامها. بوراتين في سن المراهقة؛ قنٌّ في حديقة امرأة عجوز في الجهة الخلفية؛ حمام مختلف الألوان؛ وشم حمامة على ظهر بوراتين. أقول لأختي، لقد تذكّرت ذلك اليوم، وما دار من حوار بيننا. أحب الجدة كوكي. هي أيضًا تحبك. لو تراك الآن، ستحبك ثانية، رغم فقدانها لذاكرتها. هل من الممكن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذلك يا أختي؟ هل تدوم المحبة رغم فقدان الذاكرة؟ بالتأكيد، يا بوراتين. الإنسان يحب بقلبه، لا بعقله. إن ضاعت المعلومات من العقل، لن تضيع العواطف من القلب. أرغب بتصديق كلام أختي. أرغب أن أقول لها: أحبك يا أختي. أقول لها، لكنني لست واثقًا إن قلت ذلك في قرارة نفسي، أم أن صوتي عبر سماعة الهاتف ثم انزلق كالديدان المضيئة في التربة الرطبة تحت الأرض، ووصل إليها؟ كانت الجدة كوكي تعاملني بطيبة، أقول. توافقني أختي القول. لقد ارتفعت حرارتك جدًا ذات يوم، ورقدت في السرير لأيام عدة. في تلك الأثناء، تسلط ثعبان على قنّ الحمام، وافترس عددًا منها. قامت الجدة كوكي بحراسة القن ليلًا، إلى أن تمكنت من الإمساك به بإحكام، وقتلته. صاحت في منتصف الليل، ودعتك إلى الخروج إلى النافذة. أرتك الثعبان في الظلمة. أصابك الخوف. أجل، أذكر ذلك. أخاف من الثعبان حتى لو كان ميتًا. أخاف الظلمة أكثر. بما أن من يفقد ذاكرته لا يفقد عاطفته، لابد أنه لا يفقد خوفه أيضًا. أختي، سأسالك عن امرأة رأيتها في جنازة ظافر. تماثلني في العمر وطول القامة، شعرها أسود، يتدلى على كتفيها. حاجباها طويلان ومدببان. السيجارة لا تفارق أصابعها الدقيقة أبدًا. هل تعرفين امرأة بهذا الشكل؟ أهي جميلة؟ أجل، أظن ذلك. ماذا تعني بكلمة أظن؟ هل هي جميلة أم ليست جميلة؟ جميلة. ربما جارتنا "أيلول". أقلت أيلول؟ أجل، يا بوراتين، لقد تغيّرت وازدادت جمالًا، ربما غابت مخيّلتها عن ذهنك، لأنكما لم تلتقيا منذ سنوات، لو رأتك لتعرّفت عليك. أمضيتما طفولتكما معًا. معك حق، يا أختي، لو رأتني لتعرّفت عليّ. لا تشغل بالك، سأسأل عنها وأخبرك . ليس بالأمر المهم يا أختي، خطرت لي الآن، فسألتك. ما يهمني هي حال الجدة كوكي. لا تقلق عليها يا بوراتين، لقد أصبحت الجدة كوكي من أهل الجنة. ماذا تقصدين؟ لقد فقدت عقلها وأسنانها فأصبحت كطفلة رضيعة وُلدت حديثًا. ما عاد يُكتب لها شيء من ذنوب ماضيها. رجعت إلى بداية حياتها، طفلة بريئة بلا خطيئة. كلام أختي أجمل من كلام الطبيبة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كلامها لا يشوّش عقلي. تُدخل السكينة في قلبي، ولا ترهق ذهني. أجل يا أختي، أقول. هي الآن كطفلة بريئة. لا يجرّمنها أحد لأخطاء في ماضيها. لا شك في ذلك يا بوراتين، على أية حال، فالجدة كوكي كانت مثل الملاك دائمًا. لم نسمع أنها أساءت إلى أحد قط. كانت تساعد المحتاجين في الحي رغم فقرها. بينما أصغي إلى أختي، أتفقد أسناني. أسناني سليمة، لا ضياع فيها. ليت أسناني كُسرت بدلًا من ضلعي، حين ألقيت بنفسي عن جسر البوسفور، لكنت تركت في قاع البحر ليس ماضيّ فحسب، بل خوفي وقلقي أيضًا. أختي، أقول. حمامة حطّت على الشرفة، وبنت عشًا. ربما أدركت أني كنت أطعم الطيور في الماضي وأشفق عليها. لكن بعد بضعة أيام، ألقت بيضها على الأرض ثم تركت عشها وطارت. أحزنني ذلك. لا تزال بوراتين نفسه، تشفق على النساء المسنات والطيور. إنها طير، تذهب وتعود. حالها كحال الإنسان، تمر بأحداث مؤسفة. ربما لم تتشكل حياة في البيض. الحمام يدرك أن البيضة لا تحوي فرخًا، لذلك تركتها. قريبًا ستعود وتضع بيضًا آخر. الطيور أشدّ منا تحمّلًا على الصعاب. يعاودون البدء من جديد دون كلل. لا تخرّب العش. ستعود الحمامة ثانية. عليك أن تتحلى بالصبر. أختي تتحدث عن الصبر أيضًا. هل تستخدم هذه الكلمة في لغات أخرى بهذه الكثرة؟ ألا توجد كلمة أخرى غير كلمة الصبر أشدّ تأثيرًا على رفع معنويات الإنسان؟ معك حق يا أختي، ستعود الحمامة قريبًا. أرجو أن تعود قبل أن يبرد الجو. اقترب الشتاء يا بوراتين، لقد اشتدت برودة الجو هنا، واشتد هطول المطر أيضًا. أقلت مطرًا؟ أجل، لماذا دُهشت؟ لم يهطل المطر في إسطنبول منذ أشهر. نكاد أن ننسى ما هو المطر. أتمطر في نهيرجة الآن؟ أجل، وبغزارة أيضًا، ألا تسمعه؟ أختي، هلّا تقربين الهاتف من النافذة؟ أحب سماع صوت المطر. يمرّ هزيم المطر من سماعة هاتف أختي وينطلق عبر الأسلاك، مرورًا من التربة الرطبة حول جذور أشجار الغابات، ويسيل من سماعة هاتفي في إسطنبول، ليصب في أذني. صوت مختلف عما أسمعه من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أصوات قادمة من الشارع منذ أسابيع. قد أذهب إلى نهيرجة، حتى لو ما كانت أختي هناك، ولا الجدة كوكي، ولا قبر ظافر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لو عكستُ دوران أحد المسنّنات

19

يعبق الليل برائحة خاصة. يختلط طحلب البحر بالقطران. تتغطى الأغصان الجافة للأشجار بالغبار الرملية للإنشاءات العمرانية. تغمر الرطوبة جدران أبنية الضواحي. تنتشر شيئًا فشيئًا، ريح عابقة برائحة الليل، من الأقبية حتى الأسطح، ومن الحدائق حتى أسفل الجسور، لتملأ كل أرجاء إسطنبول. رائحة هيالا، تعبق في إحدى زوايا الليل. كم الساعة الآن؟ أصوات صفارة إنذار ينبعث من بعيد، لا أدري إن كانت تلك الأصوات لسيارات إسعاف أو سيارات شرطة. لا صوت آخر في الخارج. أجدّد ملء قدحي بالنبيذ. أتجرع جرعة. يسيل النبيذ الأحمر إلى جوفي، مخلفًا طعمًا لاذعًا. بصحتك يا بوراتين، أقول. أترك القدح على الطاولة. تغطي سطح الطاولة مربعات على شكل رقعة الشطرنج. مربعات سوداء وبيضاء. لا أظن أني اشتريت هذه الطاولة، ربما تركتها صاحبة البيت هنا. أفكر مترددًا بالاحتمال الآخر. ربما هذه الطاولة من اختياري، مثلها كمثل التشوّهات في ألحان أغنيتي. أحصِي عدد المربعات. أعيد إحصائها دائمًا، كأن النتيجة ستكون مختلفة عن سابقتها. ربما أفعل ذلك كي أشعر بالنعاس. أتخيّل أني نائم عند إحصاء المربعات السوداء، ثم أدرك أني جالس إلى الطاولة عند إحصاء المربعات البيضاء. أنحني وأتشمم رائحة خشب الطاولة. رائحة الطلاء تختلط مع رائحة الليل. ربما هذه الرائحة حقيقة واقعة، وربما هي من صنع خيالي. أتشمم ثانية. طلاء، وشجر، وجذور غضّة انتزعت من الأرض. مياه منسابة حولها. لا أدري لماذا استحضر الماء الساعة البيضاء في ذهني. أنظر إلى الساعة على رف الموقدة. ألقيت نظرة إليها أثناء تناولي طعام العشاء؛ كانت تشير إلى تمام السابعة. متى تجاوزت الساعة الثامنة، والتاسعة، والعاشرة، والحادية عشرة، والثانية عشرة، حتى وصلت إلى الساعة الواحدة؟ لا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أدري. أينبغي أن أشعر بالقلق إن تمر ألف سنة كليلة مثقلة بالريح، أم ينبغي أن أشعر براحة لتوقّف الزمن؟ من يحظى بليلة واحدة، قد يحظى بألف سنة أيضًا. أو ربما عكس ذلك، من لا يحظى بليلة واحدة، لا يمكن أن يحظى بألف سنة أبدًا. يبدو أن تمثال السيد المسيح والسيدة العذراء إلى جانب الساعة، قد استسلم للزمن. الأفواه مطبقة، والوجوه جامدة، كأنها أمام بحيرة غير مرئية. أعبئ الساعة كل ليلة، وأضعها إلى جانب التمثال. صبر بلا كلل في النظرات. لا أدرك كنه هذا الصبر. أنظر إلى صورة النملة على الساعة عسى أن تساعدني على الفهم. نملة بيضاء اللون على السطح الرمادي للساعة. تحمل الساعة على ظهرها، تتحرك قوائمها الدقيقة إلى الأمام وإلى الخلف، مع كل تكة للساعة. تتقدم ثابتة في مكانها. تسير ليلًا ونهارًا بلا كلل، دون أن تبرح مكانها أبدًا. أشعر بالإرهاق عندما أنظر إليها. أنهض من مكاني، أذهب إلى الموقدة. أعتقد ثانية، أن اللون الأبيض هو الأكثر ملاءمة للزمن. أتجوّل في الصالة والساعة في يدي المرفوعة في الضوء الساطع للثريا. أخطو خطوة واحدة مع كل تكّة لعقرب الثواني. أشعر بدوار في رأسي بعد عدة دقائق. أتباطأ، أجلس في مكاني. أضع الساعة إلى جوار قدح النبيذ. لا الليل في عجلة من أمره، ولا أنا أيضًا. بينما أتجرع النبيذ عساه يساعدني على النوم، تراودني الفكرة بفكّ الساعة لرؤية محتوياتها. تستهويني هذه الفكرة. قد أمضي مع الساعة بعض الوقت. أذهب إلى المطبخ وأحضر صندوق العدّة. أخرج مفكات صغيرة من الجيب العلوي للصندوق. أقلّب الساعة وأفك بأصابعي مفتاح التعبئة. أستخدم المفك لفك براغي تثبيت الغطاء الخلفي. أضع مفتاح التعبئة والبراغي بالترتيب على مربعات سطح الطاولة كي أعيد جمعها بسهولة فيما بعد. أسحب ذراع الجرس، وأضعه على المربع التالي. حين أشرع بفك برغي التعبئة، ألاحظ أنه ينبغي إدارته في عكس اتجاه عقارب الساعة كي يخرج من مكانه، في حين يدور أثناء عيار الساعة باتجاه عقاربها. لا أنوي إرهاق ذهني بالبحث عن مدلول لذلك. أضع ذلك

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البرغي على مربع آخر أيضًا. أرفع الغطاء الخلفي بحذر. أرى محتويات الساعة أول مرة في حياتي. لم أرها في حياتي الماضية. لا أعرف أسماء المسنّنات، والنوابض، والبراغي اللامعة تحت ضوء القطع الكريستالية للثريا. تدور المسنّنات بسرعات مختلفة، وباتجاهات مختلفة أيضًا. لا أستطيع رؤية النملة. هربت النملة فور دخول الضوء إلى داخل الساعة، وعبرت إلى الطرف المظلم من الزمن في الأسفل. لم يخطر لي وجود هذا الكمّ من المسنّنات داخل ساعة بحجم الكف. المسنّنات المتشابكة أسنانها، أقامت سماء مغلقة، وتدور في حلقة مغلقة. بمعنى أدق، الأرض والسماء يدوران حولها. قدر كل شيء مرتبط بها. صوت الساعة الذي لا يكاد يُسمع من بعيد، يجعجع الآن كحجر الرحى. إن أنام هنا، أضع رأسي على الطاولة وأغفو، لن يمرّ وقت طويل حتى يوقظني هذا الصوت. هل هذا الصوت عائد لكل المسنّنات مجتمعة، أم من جهد مسنّن واحد بعينه؟ أمعن النظر إلى مسنّن بحجم متوسط في الأعلى، لعل الصوت صادر منه. ثم ألقي نظرة على مسنّن كبير في أسفل الطرف الأيمن. أحاول الوصول إلى مصدر الصوت، بالانتقال إلى قعر الساعة الطبقة تلو الطبقة. أعرف، لو نزعت أحد هذه المسنّنات ستتوقف الساعة وينقطع صوتها أيضًا. أي المسنّنات هو؟ النبيذ قد يشحذ ذهني. آخذ جرعة، وألتقط أنفاسي. قطعة معدنية مربعة الشكل فوق المسنّنات، مثبتة بالبراغي من أطرافها الأربعة، وتضمّ كل القطع بعضها إلى بعض. أبدأ بها. أفكّ البراغي الأربعة. أخرج القطعة المعدنية المربعة الشكل. أضع البراغي والقطعة المعدنية على أحد المربعات السوداء فوق الطاولة. لابد أني كنت ماهرًا بالعمل اليدوي. أصابعي تتعامل مع المفكات بمهارة. ربما كنت أصلح جيتاراتي بنفسي، أستبدل قطعها الكهربائية ومعيار ذراعها. ربما لم يكن ذلك أصعب من فهم عمل مسنّنات الساعة. عندما كنت أظن أن الزمن يجري إلى الأمام، راودني في الوقت نفسه، الشك في حقيقة ذلك؛ وبينما أنظر الآن، إلى المسنّنات، أرى أن شكي في محلّه، فالزمن يدور بلا توقف، لكنه ثابت

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في المكان نفسه. لا يتقدّم قيد أنملة. يشبه الحلم. كل شيء في لحظته الآنية. قلب الساعة ومجرى حياتها ينحشر داخل إطارها الخاص بها. يبدو ذلك لي جميلًا. أستطيع أن أكيّف حياتي على الساعة. الكل يكيّف حياته عليها. الكل يمكنه أن يأخذ ساعة، يفتح غطاءها، وينظر إلى داخلها. عندما يحاول أصدقائي وطبيبتي والبقّال على الدوام، منحي ماضيًا، هل يعلمون كيف تعمل الساعة، يا ترى؟ خلال آخر اتصال هاتفي لي مع أختي، أدركت أني أتوق إلى معرفة ما أجهله من ماضيّ، وأنفر منه في الوقت نفسه. شعوران متضادان، التوق والنفور. لا أبالي كيف اتحدا. عندما ذهبت إلى الفراش في تلك الليلة، أعطيت نفسي وعدًا مرة أخرى، بأن أنسى الماضي وكلمة الماضي، الذاكرة وكلمة الذاكرة. أخلفت وعدي بعد فترة قصيرة، مثلما أخلفت وعودي الكثيرة السابقة. لست مخطئًا في الشك بكل شيء. ما دامت آلام السيد المسيح قبل ألفي عام، لا تدوم حتى اليوم؛ وآلام ضلعي ليست استمرارًا لآلام من الماضي، لِمَ لا يكون ما فقدته من زمن هو أحد أسرار الماضي؟ أفكر بكلام هيالا: لا فرق بين الماضي والتاريخ. عندما يحاول الجميع منحك ماضيًا، هم في الواقع، يدخلونك في التاريخ، لا تنسَ ذلك، يا بِوراتين. في الماضي، كل شيء حي، وفي التاريخ، كل شيء ميت. أجد نفسي في أحضان التاريخ. كائن ميت. أشك في نفسي. أنهض وبيدي المفك. أذهب بخطوات سريعة إلى غرفة النوم. أخرج إلى الشرفة، أنظر إلى السماء اللامعة. البدر يتقدم نحو الجنوب الغربي. يبدو تلألؤ النجوم واضحًا، رغم أضواء المدينة. سيل عظيم من النجوم المنفردة ومجموعات أخرى لنجوم الأبراج الفلكية، لا أعرف أسماءها. لا أحد منها موجود حيث أراها في هذه اللحظة. عاشت قبل آلاف السنين، وقطعت مسافات شاسعة حتى وصلت إلى سمائي هنا. النجوم من الماضي البعيد وفي الوقت نفسه، من الحاضر القريب في ليلتي هذه. عرفت هذا وحدي الآن، ولم يخبرني به أحد من قبل. الليل لي، والنجوم لي، والماضي لي. من يمكنه أن يفهم ذلك؟ لو أخبرت

الطبيبة، ستعطيني أدوية جديدة. ولو أخبرت بيك، فسينظر إلى وجهي بقلق خفيّ. ولو أخبرت هيالا، فستقبّلني. ولو أخبرت أختي، فستقول اشتقتُ إلى كلامكَ العَصِيّ على الفهم. أنا اشتقت أيضًا، لكنني لا أعرف ما الذي اشتقت إليه. في البعيد، نجم يمرّ سريعًا فوق بحر مرمرة. لو كان أصدقائي هنا، لأصروا علي طلب تحقيق أمنية ما في قرارة نفسي. من المؤكد أنهم سيعتقدون أنّ ما تمنيت تحقيقه له علاقة بماضيّ. لا أدري ما الذي ينبغي عليّ أن أتمناه: أن يزول ألم ضلعي، أم أن أرجع إلى حالي القديمة مغني بلوز ثانية، أم أن أعرف ماذا أسأت إلى المرأة ذات الشعر الأسود الطويل؟ نجمة واحدة، لا تكفي لأمنياتي. أشيح بوجهي عن السماء وأنظر من الشرفة إلى الأسفل. يبدو الشارع غامضًا كالسماء. خرجت إلى هذه الشرفة مرتين سابقًا، كلا، بل ثلاث مرات، تأملت الساحل والأحياء السكنية، لكنني لم أنحنِ وأنظر إلى الأسفل سوى اليوم. الغموض يستهويني. لو أبسط يديّ كجناحي حمامة، وتأتي ريح لطيفة تحملني وتذهب بي. إلى أين؟ أشعر بالفزع. أتراجع خطوة إلى الخلف. أوراق الشجر تحت قدميّ. تحت الأوراق قشور بيض وأفراخ لم تولد. أتراجع خطوة أخرى، وأدخل الغرفة. أغلقِ باب الشرفة. أذهب إلى الصالة، وأجلس إلى الطاولة. يستمر دوران الساعة كحجر الرحى، يتابع طحني والنجوم بالاتساق نفسه. ربما كلام الآخرين ونصائحهم على صواب. ربما أنا المخطئ في استشفاف باطن الأمور. لا أفهم شيئًا عن آلية عمل ساعة بحجم الكف. أحاول تمييز المسنّنين المتصلين بعقربي الساعات والدقائق بين كل هذه المسنّنات. لابد أنها في الأسفل، الأقرب إلى وجه الساعة. أثبّت نظري، وأراقب حركات المسنّنات. بعد مرور فترة من الوقت، أشعر كأنني حشرت بين عقربي الساعات والدقائق، كنملة قبض عليها من ظهرها بإحكام. ضلعي المكسور يؤلمني. لا أستطيع التحرك من مكاني. أشعر بين المسنّنين، بضيق أنفاسي. أترك المفك من يدي. أبحث عن مكان يتسع للنجوم والحياة والموت. دوران المسنّنات بلا توقف، يجلب النعاس

لأجفاني. كأن أحدًا ما يحجب ضوء الثريا. الأصوات تخفت. لأقلب الساعة، وأرى إلى ماذا تشير. هل تشير إلى الساعة الثانية، أم الرابعة؟ مياه قاتمة تملأ الفراغ في ذهني. تطبق أجفاني. أسند رأسي إلى الطاولة. أستغرق في النوم إلى جوار الساعة. حلم ينتظرني هناك. أجد نفسي ماشيًا في الشارع وسط زحام صامت. معارف لي إلى جانبي. ساعات الجميع تشير إلى الدقيقة نفسها. زوجان يلتقيان عند ناصية الشارع، يعايران ساعتيهما معًا، يتشابكان بالأيدي ويتابعان طريقهما. إن يتقدم أحدهما عن الآخر قليلًا، يريان الدنيا من زاويتين مختلفتين، ويصعب على أحدهما فهم الآخر. أمهات وأطفال يراقبون الشارع من الشرفات بصمت. ساعات الأمهات والأطفال تعمل بسرعات مختلفة، لم يدركوا ذلك بعد. حين يجتمع كل الأزواج والأمهات والأطفال ومعارفي معًا في مكان متوسط من إسطنبول، ستدق ساعاتهم مجتمعة، لتصدر صوتًا كالرعد. ساعتي فقط لن تتطابق وساعاتهم. أقف على الرصيف بمحاذاة حائط. أنظر إلى الساعة التي أحملها في يدي. مسنّنات، ونوابض، وبراغي. أحد المسنّنات، يدور باتجاه معاكس. لا أعرف أي اتجاه هو الصحيح. لو أعكس دوران إحدى المسننات، فستتوقف جمِيعها. ربما فككت الساعة من الجهة الخطأ. كان ينبغي عليّ فك واجهتها الزجاجية أولًا، ثم فكّ عقربي الساعات والدقائق، ثم إطلاق سراح النملة، ثم متابعة آثار قوائم النملة وصولا إلى قلب الساعة، إلى حجر الرحى الذي يدور ببطء. طنين في أذنيّ. أباعد أجفاني. أصغي إلى الأصوات دون أن أرفع رأسي عن الطاولة. صوت الساعة عند رأسي، ضجيج آليات جمع القمامة في الشارع. عزف جيتار يصدح عن قرب، ربما جيتاري الذي ينتظر أن ألمسه منذ أسابيع. كم الساعة الآن، أتشير إلى تمام الرابعة، أم إلى تمام السادسة؟ أعبئ ساعة عقلي كي لا تتوقّف أثناء نومي، فتشير إلى الزمن الخطأ، أطبق أجفاني ثانية.

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

20

يقول بيك، كنت تتردّد وسوزان إلى هذا المقهى دائمًا. بعد انفصالكما، انقطعت تمامًا عن التردد إليه، أو ربما هذا ما أعلمه. بعد منع حركة السير في الشارع، أعيد تجهيز المقهى بحيث يضفي الأجواء البيتية الدافئة على داخله، وأجواء الحديقة المنزلية على ساحته الخارجية. أمضيتما هنا أوقاتًا طويلة. كنت تقرأ كتابًا بينما ترسم سوزان لوحة. ألقي نظرة على الجوار بينما أستمع إلى بيك. يتألف المقهى من بابي دكان، في الطابق الأرضي لمبنى يبدو حيًّا بجدرانه المغطاة بالمعرشات والزخارف، رغم قدمه. في الحقيقة، رغم ضيق الشارع أمامه لكنه يستحضر حديقة منزلية، زُيّنت طاولاتها بأصص صغيرة زُرع فيها البنفسج، وإبرة الراعي، والسحلبية، ونباتات أخرى متعددة الألوان. يجلس الشباب باسترخاء على كراسي واطئة بحشيّات مريحة، يتحدثون بحميمية ويقرأون كتبًا. يتابع بيك كلامه، ستأتي سوزان إلى هنا، غدًا، ستلتقيان هنا. كان من الأجدر أن تنتظر حتى غدٍ لتتعرفا معًا على هذا الشارع. لم أفهم سبب إصرارك على المجيء إلى هنا، اليوم. لا ذكريات لي هنا، لأطلعك عليها، لكن سوزان لديها. أتخشى من لقائها؟ عيناي تنظر إلى زخارف الجدران دون أن أشيح بوجهي عن بيك، وأقول، أجل، أخشى لقاءها. ولو أعدت سؤالي ثانية، فسأجيب كلّا، لا أخشى لقاءها. لا أشعر بأية أحاسيس، يا بيك، ثم أشعر بشيء ما فجأة، وفي الوقت نفسه. أشعر بفضول لمعرفة ماضيّ، ولا يهمني معرفته، في الوقت نفسه. أريد المجيء هنا غدًا، ولا أريد المجيء أيضًا. سبب مجيئي اليوم، إلى المقهى كي أعيش التجربة، وأتحقق مما أريد. من ناحية أخرى، لا أتمكن من التمييز بين الخطأ والصواب. لقد أحببت فتاة، ثم هجرتها. ماذا لو كنت قد أسأت إليها، واكتشفت ذلك غدًا؟ أنا خائف من ذلك، كما أخشى إن لم أعرف شيئًا غدًا، أن أعود إلى البيت بذهني التائه ذاته، لا أعرف من أنا. كل محاولاتي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فشلت حتى اليوم. لم تُرجع الجيتارات والأغاني لي ذاكرتي. لم تجدِ نفعًا محاولات الطبيبة والبقال والحمام ودفتر أرقام الهواتف وصديقي المتوفى باستعادة ماضيّ. تبدو محاولة انتحاري للجميع غامضة، مثل ما تبدو لي غامضة أيضًا. لماذا أردت الموت؟ أكنت يائسًا محبطًا، أم كنت أسعى خلف أوهام خاطئة؟ أفكّر بهذه الأوهام صباحًا ومساء، دون أن أتوصل إلى معرفتها. حينذاك أشعر بالفرح، وأقول لقد تخلصت من الأوهام الخاطئة. ستذهب الآن، يا بيك، لتشارك في بروفة حفل نهاية الأسبوع الموسيقية. أريدك أن تعرف قبل ذهابك أني لن آتي إلى هنا غدًا. لن ألتقي حبيبتي السابقة. تجول هذه الأفكار في عقلي منذ أيام. تردّدت كثيرًا باتخاذ القرار المناسب، وما إن جلست هنا حتى قرّرت عدم لقاء سوزان. لا تقل لي شيئًا. أظن أن وراء كل ما تقوله طويّة ما، فيتشوّش عقلي. أحاول جاهدًا صباحًا ومساء إدراك هذه الطوايا، في النهاية، أصل إلى نفق مظلم. إلى متى سيستمر هذا التشوّش؟ جد لي حلًا، يا بيك. لقد نسيت الماضي، وانساه أنت أيضًا، واقبل بحالي هذه. إن تثق بي، أثق بك أيضًا، وأتوقّف عن محادثة نفسي طوال الوقت، وينتظم نومي. حاولت أن تعيد لي ماضيّ، فلم تنجح، حاول هذه المرة، أن تبعدني عنه. خذني بعيدًا حيث لا مكان للماضي. لا أحد ينجح بذلك سواك. أتعلم يا بيك، أني على عكس ما تظنه، لا أشعر بتوق إلى الماضي، ولا أبالي بمعرفته. أعرف القليل عن الناس وكيف يمضون مسيرة حياتهم. يحلم الناس في بداية حياتهم، أي في شبابهم، بمستقبل مثالي، مفعم بالتفاؤل. لكن المستقبل يطول، ويحمل كل الاحتمالات المتوقعة وغير المتوقعة. مع اقتراب خط العمر من النهاية، تبدأ الاحتمالات المتوقعة بالنفاد، وتبدأ الأحلام الجميلة بالتلاشي الواحدة تلو الأخرى. عندئذ، يرجع الإنسان إلى ما يملكه، بمعنى آخر، يلهي نفسه بالماضي الواسع، ويحلّ الحنين إلى الماضي مكان الواقع الحاضر. أنا، لا أملك أحلامًا أتوق إلى تحقيقها، ولا ماضيًا أحن إليه. هل أعتبر ميتًا في حالتي هذه، أم أني مخلوق فريد من نوعه؟ إن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تثق بي، سأتحرر من البحث عن أجوبة لهذه الأسئلة اللانهائية.

ألتفت إلى الأمام على وقع صوت بيك يقول، بوراتين... هل أنت بخير؟ ما بك قد شردت؟ أدرك في تلك اللحظة أنني كنت أحادث نفسي، فأقول، أنا بخير، لقد شردت بجمال الزخرف على الجدران. تعلم يا بيك، أتذكّر كل ما يجول في ذهني باستثناء ما يحيط بي. هذا المقهى، أحد هذه الاستثناءات. تغور عيناي وتغشى، وكلما حدقت في الزخرف، تبتعد عني. لقد غامت السماء، وأعتم الجو، لذلك لا يبدو الزخرف لك واضحًا، يقول بيك. أهذه سحب ماطرة؟ آمل ذلك، يقول بيك، ستمطر هذه المرة. أتجه بنظري حتى نهاية الشارع. تبهت الألوان الزاهية للجدران مع امتداد الشارع وتشحب عند نهايته. تتهيأ السحب لإحلال المساء قبل أوانه. أرى السحب تهبط إلى هذا المستوى أول مرة. إن أصعد إلى السطح أمسك بها. لا أعرف ما الذي ينبغي علي فعله إذا ما هطل المطر، أأنتظر هنا، أم أدخل إلى المقهى؟ اهدأ يا بوراتين، اهدأ. ألست هادئًا؟ كلا، لقد انفعلت، وتدفق الدم في وجهك. بينما كنت تضع الفنجان على الطاولة كدت أن تدلقه. إن يهطل المطر، تنتظر قليلًا، لتشعر به وتدرك ما هو، ثم ادخل إلى المقهى، وإلا ستبتل من رأسك حتى قدميك. جميل، متابعة المطر من الداخل من خلف الزجاج. حسنًا، سأفعل ما قلت. هل تعلم يا بوراتين، أن لك أغنية جميلة حول المطر. إن يهطل المطر، أستهل بها حفل نهاية الأسبوع الموسيقية، أحفظ تلك الأغنية جيدًا. ينظر بيك إلى وجهي منتظرًا ردة فعلي فأقول، لا تنتظر شيئًا من النظر إليّ، لا أتذكر تلك الأغنية. أعتقد أنها تحمل بعض العيوب في ألحانها. لِمَ تقول ذلك يا بوراتين؟ لا يخطر ببال أحد وجود عيوب في أغانيك. لا يوجد من هو يفوقك براعة. إن تستمع الآن، إلى الأغنية تدرك أن شكك في غير محله. أتريد أن أغنيها لك؟ لا، لا أريد، سأجد تنافرًا ما بين الكلمات والألحان، وسيزعجني ذلك. لا يستوعب بيك لِمَ قلت ذلك، ولا يصرّ على معرفته،

بل يقول، علي الذهاب، وإلا سأتأخر على البروفة. ينهض على قدميه. في تلك الأثناء، يأتي النادل فيطلب منه إحضار طبق من الرز بالحليب. كان طبقك المفضل هنا. تذوقه، سيعجبك مذاقه، يقول، ثم يضع يده على كتفي، ويضيف، نتواصل غدًا، كل شيء، سيكون أفضل في الغد. أريد أن أخبرك شيئًا، أقول. حسنًا، هيّا، أخبرني. سأذهب إلى نهيرجة لزيارة أختي، أقول. متى ستذهب؟ يقول. في أقرب وقت، أقول. يتريث بيك واقفًا بتردد، ثم يعاود الجلوس، ويسأل، ماذا تقصد بقولك في أقرب وقت، متى بالتحديد؟ بيك، يخمن ما يجول في عقلي. يعرفني أكثر مما أعرف نفسي. بيك، أقول، يكفيني ما بقي من حياتي القديمة. أنت وبضعة أشخاص وجيتارات لم تلمسها يدي بعد. لا أشعر بالحاجة إلى ما هو أكثر من ذلك. لا أريد شيئًا آخر من حياتي الماضية ولا حتى حبيبتي القديمة. أريد رؤية أختي فقط من حياتي الماضية. تنتظرني منذ أسابيع بل منذ سنوات. أقول لها دائمًا، إني قادم قريبًا. ما الذي أنتظره؟ قل لي، ما الذي أنتظره؟ يقول بيك بصوت مهدئ، اذهب متى تشاء. عليك المبادرة بالخطوة الأولى نحو حياتك القادمة. ستجد أن قرارك مهما كان، هو الصواب بعينه، لكن لا تتوانَ باتخاذ قرارك، وإلا ستتخلى عنه سريعًا. أعرف ذلك، أقول، لا تقلق من أجلي. هيا اذهب، ستتأخر على البروفة. لأبقَ معك بعض الوقت، ونناقش ما تنوي فعله، يقول. لا يا بيك، أقول معترضًا، لا أريد أن أكون سببًا في تأخرك على الأصدقاء. حسنًا، سأذهب، لكن لا تغلق هاتفك الجوال. لن أغلقه، أقول، فيضيف، وإلا ستشغل بالي. يقصر عينيه مبتسمًا. ينهض ثانية على قدميه. يصفف شعره بيده. ينظر يُمنة ويُسرة. يحمل حقيبته ثم يذهب. أنظر إلى مشي بيك، إلى رأسه المنحني بقلق، حتى يغيب في نهاية الشارع. أرتشف ما تبقى من قهوتي. أطفئ سيجارتي في منفضة السجائر. لا أشعر برغبة بتناول الرز بالحليب الذي أحضره النادل. أدفع الحساب وأغادر المقهى. أمشي بخطوات سريعة في الشوارع. أنظر إلى السماء عند كل عبور لمفارق الطرق. أصل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى البيت بعد خمس عشرة دقيقة. أعدّ حقيبة الظهر. يكفيني بضع قطع من الثياب، وأسطوانتين. آخذ الأسطوانتين لابن أختي. أطفئ الثريا التي كنت أتركها منارة دائمًا. أنزل الدرج على عجل. الركض وحمل حقيبة الظهر يسببان الألم لضلعي. أنزل الحقيبة على الرصيف، وألتقط أنفاسي. ألوّح بيدي لسيارات الأجرة المارة من الطريق. لا أرى البقّال خارج دكانه. لابد أنه مشغول بأحد زبائنه. تقترب سيارة أجرة بعد وقت قصير. أخبر السائق عن وجهتي إلى محطة قطارات حيدر باشا، فيقول، حسنًا. شعر السائق أشيب ويضع نظارة سميكة. يرتدي بدلة، ويضع ربطة عنق. أظن أنه موظف حكومة متقاعد. بعد أن ننطلق، نواجه بأزمة سير خانقة. إن ناقلة بترول سببت تلك الأزمة، يقول. أقلت ناقلة بترول؟ أسأل. سمعت من الراديو قبل قليل، أنه تم إيقاف جميع رحلات البواخر بين ضفتي البوسفور بسبب حادث وقع لناقلة بترول، لذلك توجه جميع الركاب إلى السيارات للعبور إلى الضفة الأخرى، ما أدى إلى أزمة السير هذه على الجسر. آمل أنك لست على عجل. لا بأس، أقول. لدي متسع من الوقت، لم يحل المساء بعد. أزمة السير هذه ليست بسبب هذا الحادث فحسب، فالمطر سيهطل هذه الليلة أيضًا، يقول السائق. أسمعت ذلك من الراديو أيضًا؟ أجل، سنرى المطر أخيرًا، بعد طول انتظار دام أشهرًا. هل يتأخر هطول المطر دائمًا، أقصد هل يهطل المطر نادرًا في إسطنبول؟ أسأل. على العكس، هذه الأشهر هي أشهر المطر، لكن شح المطر هذه السنة غير اعتيادي، يجيب السائق. أنظر إلى السماء عبر الزجاج من المقعد الخلفي. أدرك أن السماء ستمطر هذه المرة. أستمع إلى ما يدور من حديث يجري على الراديو حول مباريات الأسبوع الماضي لكرة القدم، وحول أداء الفرق الرياضية ومدربيها ولاعبيها. أعرف كلّ اسمٍ يُذكر. لم أفقد هذه الزاوية من ذاكرتي. لكن زمن أحد المدربين اختلط عليّ، إذ ظننته قد مات منذ سنوات طويلة، مع أنه لا يزال على قيد الحياة. ينتهي البرنامج الرياضي، ويبدأ برنامج موسيقي. تتوالى الأغنيات الشعبية والحزينة

والعاطفية. رغم بطء حركة السير، لكننا نتمكن من الوصول إلى جسر البوسفور بين أصوات أبواق سيارات السائقين المتوتّرين. عتمة المساء تغلّف الأفق. تبدأ أنوار الجسر بالإضاءة وترافقها تباعًا أنوار لشوارع وبيوت ضفة البوسفور المقابلة. تتقدّم المركبات بسرعة من يمشي على قدميه. تتقدّم مسافة مترين، وتتوقّف لمدة دقيقتين. في تلك الأثناء، يعلن الراديو أنه تم التعامل مع حادث الناقلة، وأن حركة تنقّل البواخر قد أعيدت. دبّت الحياة في البحر من جديد. لو تجرّأت ونظرت إلى الأسفل، فسأتمكن من رؤية البواخر تعبر البوسفور. سأتمكن من تمييز الزوارق الآلية تتنقّل كاليراع بين مِيناءَي بشيكطاش وأوسكودار. لو أتلهّى بأنوار البواخر والزوارق، لأبعد عن ذهني التفكير بليلة الانتحار. مهما أحاول لا أفلح. يتجسّد كل شيء أمام ناظري كفيلم سينمائي. كنت جالسًا على المقعد الخلفي لسيارة أجرة أيضًا، في آخر ليلة من حياتي القديمة. كنت وحيدًا. كنت ثملًا. كنت غافيًا. ربما كنت قد رأيت حلمًا. متى حدث ذلك، أقبل شهر، أم شهرين، أم ربما قبل ألفي عام؟ ثم صحوت لسبب ما. رأيت توقف المركبات. كان سائق سيارة الأجرة يقف خارجها، يتحدث بالهاتف. سائقون آخرون ترجلوا أيضًا. يراقبون الحادث عن بعد. أدركت أن الحادث وقع في منتصف جسر البوسفور، لكنني لم أبالِ بالحادث بل بالبحر. فتحت باب السيارة، توجهت بخطوات بطيئة نحو حاجز الجسر. نظرت إلى السماء والأنوار على الضفة الأخرى. استجمعت قواي وتسلقت الحاجز. بسطت ذراعي في الهواء. أخذت نفسًا عميقًا، بانتظار ريح تحملني بعيدًا. ربما لم أميز مدى عمق البحر إذ كان الوقت ليلًا والظلام مخيمًا. الثمل أنساني التفكير بمدى عمق البحر. كانت إسطنبول تصخب. علت أصوات الشواطئ والجزر وسفوح الجبال واختلطت. كنت خفيفًا كريشة في وسط إسطنبول، ما بين قارتين في وسط الدنيا، في وسط البحر، وفي وسط الليل، وفي وسط الحياة. لم أسمع الصياح حولي. أردت النوم ثانية. أغمضت عينيَ وتركت نفسي في الهواء، كعصفور. هذا

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ما رواه السائق مضيفًا: بسط ذراعيه كجناحي طير ورفرف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

21

نصل إلى محطة قطارات حيدر باشا مع هبوط ظلام المساء. أقلّب النظر حولي. لا أرى أحدًا على رصيف الشاطئ، سوى شابٌ وفتاة يمشيان يدًا بيد، وشابٌ آخر وفتاة أخرى جالسين على مقعد. على مسافة غير بعيدة، يبدو رصيف الميناء خاليًا من الركاب، وباخرة راسية مطفأة الأنوار. لماذا يبدو المكان مهجورًا، أهكذا يكون دائمًا، في منتصف الأسبوع؟ أسأل. يلتفت السائق إلى الخلف وينظر إلي. هل أتيت للقاء حبيبتك هنا، أيها الشاب؟ يجيبني سائلًا. كلا، أنا عائد إلى بلدتي، أتيت لأركب القطار، أجيبه. يبدو أنك غريب، يقول. لِمَ تقول ذلك؟ أقول. ألا تعلم أن محطة القطار قد أغلقت وأوقفت رحلات القطارات، يقول. حقًا؟ أقول. أشعر بتشتّت في ذهني، ورأسي يدور. إن كانت محطة القطارات مغلقة، لِمَ الأنوار مضاءة، إذن؟ أقول. ينيرونها كي تبدو جميلة، لتجذب انتباه السياح، كما أن الشباب يلتقون هنا، يقول. متى أُغلقت، ولماذا؟ أقول. احترق الطابق الأخير من مبنى المحطة قبل سنوات، فتوقّفت جميع رحلات القطارات هنا، وأصبحت قطارات الأناضول تنطلق من محطة "بندك" في الضواحي الشرقية من المدينة. إن كنت ترغب، أوصلك إلى هناك. لا أريد، سأنزل هنا، لأشاهد إسطنبول من ضفتها الشرقية. أعود وأقول أنك غريب عن إسطنبول، لكن ما دمت قد وصلت حتى هنا، سترى جمال الضفة الغربية لإسطنبول من هنا. هذه المرة، أظهر القبول بما يصر السائق على قوله. أجل، أنا غريب، أقول. متى أتيت إلى إسطنبول؟ يسأل. منذ ثلاثة أشهر، أقول. أشكره وأدفع الأجرة. أترجّل من السيارة، ألوح له بيدي كأني أودع قريبًا لي. هو أيضًا، يرد بإطلاق بوق السيارة. أضع حقيبة الظهر على أول درجة من درجات المحطة. أرفع رأسي وأنظر إلى نوافذ المحطة الطابق تلو الطابق، وإلى أبراجها المرتفعة في السماء المعتمة. ربما كنت أتأمل واجهة المحطة من أسفلها حتى أعلاها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كلما أتيت إليها في الماضي؛ أصعد الدرجات على مهل، وأنظر حولي كأنني سأرى أحدًا أعرفه بين صاعدي الدرجات وهابطيها؛ أدخل المبنى وأشتري تذكرة. الآن أيضًا، أصعد الدرجات على مهل. ما إن أضع قدمي على أول درجة، حتى أفكر بعدّ الدرجات التي أصعدها. هل كنت أعُدّ الدرجات في الماضي أيضًا؟ أتساءل متابعًا الصعود والعدّ. أشعر بمرور سنة كاملة مع كل درجة أصعدها، ثلاث سنوات، أربع سنوات... أصل بعد سنوات إلى المدخل الأيمن للمحطة. باب المدخل من خشب بلون مائل إلى السواد، يبدو أن الزمن قد عفا عليه، كأنه يعِد من يخرج منه، بدنيا جديدة. أدفع الباب بيدي. لم يتحرك. أحاول مرة أخرى. يبدو أنه مقفل. أنظر من إحدى فتحات الباب الزجاجية، باحثًا عن مظهر للحياة في الداخل. أضع يدي على حاجبي كي أرى أكثر وضوحًا. لا أرى شيئًا سوى الظلام الدامس. هل هذا الظلام يشبه ما أراه من ماضيّ؟ أعلم أن هناك حالات مختلفة من الظلام، لا تتشابه بالضرورة. الطريق الذي أختَطّه لنفسي خطوة بخطوة منذ أشهر، ينتهي هنا. طريق ينتهي بظلام لا نهائي، يحجب الرؤية أمامي. لابد لي من البحث عن أجوبة لأسئلة أخرى جديدة لا أعرفها بعد كي أتمكن من رؤية ما يحتويه هذا الظلام. أدير رأسي وأضع أذني على الزجاج. أحبس أنفاسي. أنتظر سماع أصوات في الداخل لقاطرة، أو صفارة، أو مكبر صوت يعلن قرب انطلاق قطار ما إلى وجهة ما. لكنني أسمع بدلًا من ذلك، نعيقًا لنوارس يصمّ الآذان. هل الصوت صادر من داخل المحطة، أم من خارجها؟ أرفع رأسي وأنظر إلى الأعلى. النوارس تمر من فوق رأسي متدافعة. أشعر بشعري يتناثر في الهواء بفعل حركة أجنحتها ومن شدّة قربها مني. ألمح نافذة قوسية واسعة بين بابي مدخلي المحطة، زجاجها بألوان عديدة، وساعة بواجهة بيضاء تعلو النافذة. الساعة لا تعمل، عقربا الساعات والدقائق متوقفان عند الساعة 3:30. يبدو أنهما يشيران إلى ساعة وقوع الحريق في المحطة، وينتظران إصلاحها. الرياح الغربية الجنوبية، تصفع الساعة بقسوة. ألتف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بمعطفي وأرفع ياقته. أجلس على الدرجات كمن لا يجد مكانًا ليأوي إليه. أتجاوز البحر بنظري وأمشط ساحل الضفة الأخرى. أضيئت القباب والمآذن والأبراج هناك أيضًا. ضفتا إسطنبول بأنوارها المتشابهة تنظر كلّ إلى الأخرى. من يجلس على إحدى الضفتين، يتابع بنظره من يجلس على الضفة الأخرى. كلٌّ يتابع الآخرين على الضفة المقابلة بنظره، كأنه ينظر في مرآة كبيرة بسعة البحر. أنظر إلى الضفة الأخرى بحثًا عن شخص يشعر بألم في ضلعه، مثل ما أشعر، لا يتمكن من ركوب القطار، ولا يتمكن من العودة إلى بلدته، ولا يعرف ما ينبغي عليه فعله سوى الجلوس في مكانه، كما أشعر بالفضول لمعرفة أحاسيسه في الوقت نفسه. الأمواج أشدّ من ذي قبل. الغيوم تزداد تكاثفًا، كأنها تثأر للأشهر الماضية. أشعر بالوحدة، وأجلس على الدرجات منتظرًا كتلك الباخرة الخالية ترسو على رصيف الميناء منتظرة، لكن ما الذي ننتظره؟ أبواب الرصيف مغلقة، وأنواره مطفأة. لماذا تُركت الباخرة في ميناء أُوقف عن الخدمة؟ منارة البحر ترتفع منتصبة عند مقدمة مصد الأمواج، تضيء من أجل هذه الباخرة، وتشير إليها للسفن القادمة من بعيد. عندما كنت أنظر من شرفة بيتي في الضفة الأخرى، كنت أرى منارةِ البحر من بعيد، فأعتقد أنها تناديني بإشعال ضوئها وإطفائه على الدوام. كنت أخطّ لنفسي طريقًا خطوة بخطوة، كل ليلة. لابد أني كنت على علم بحريق محطة حيدر باشا، لكنني ظننت أنه وقع قبل قرن من الزمان. لا لوم على منارة البحر، فقد كانت ترشدني إلى الطريق الصحيح، لكنها لم تخبرني عن الزمن، فقد كان يشتعل وينطفئ في زمن آخر.

ينهض الشاب والفتاة الجالسان على المقعد ويذهبان. قبل أن يبتعدا كثيرًا، يتبعهما الشاب الآخر والفتاة المتنزهان على رصيف الساحل. أظلّ وحدي جالسًا على درجات المحطة. وزغة تظهر قرب قدمي. من أين أتت؟ ربما أتت من تحت باب المحطة المغلق على الظلمة، أو ربما من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سطح الباخرة الراسية على رصيف الميناء. جسمها دقيق، وذيلها طويل. تنزلق بجلدها الأخضر على الرخام الأملس. تقف عند ثقب، ترفع رأسها وتتشمّم الهواء، كأنها تصغي إلى هدير الرياح. في تلك الأثناء، يرن هاتفي الجوال معلنًا استقباله لرسالة خليوية. لا أظن أنها من بيك، لأنه يفضّل الاتصال المباشر بدلًا من كتابة الرسائل. أفتح الرسالة وأقرأها. الرسالة من هيالا. تقول فيها، كيف حالك؟ أخبرني إن كنت بحاجة إلى شيء ما. أعرف أن هيالا تريد مساعدتي. أشعر كأني أعرفها منذ سنوات، رغم أننا لم نلتق سوى لليلة واحدة فقط. تتفهّم عدم ردي على رسائلها، وحين أرد عليها أحيانًا، تقول، لا تجهد نفسك بالرد عليّ، لا تنسَ أني قريبة منك دائمًا. لا أنسى استعدادها لمساعدتي دائمًا. كنت أنوي إرسال رسالة لها بعد صعودي القطار. كنت سأخبرها أني في القطار وذاهب لزيارة أختي لفترة. كنت سأخبرها أن جميع الركاب إلى جانبي نِيام، وأن العجلات الحديدية تنزلق على سكة القطار، مثل انزلاق وزغة على الرخام، وأني أتابع الظلام من النافذة ، وأن أغنية على طرف لساني أنتظر تذكّرها. أعرف أن الموسيقى لا تعطي معنى للكلمات بل للأصوات، وكل صوت يخلق لنفسه معنى. (هل أعرف ذلك؟). أراكم أصواتًا شتى في ذهني (هل أراكم أصواتًا؟). الغارقون في النوم سعداء، والصاحون قلقون من ضوضاء الليل. برق يلمع في الأفق، من مكان في السماء بعيد، لا يمكن الوصول إليه. الغيوم ترتعش، والأمواج ترتفع. شجيرات على قرب من الدرجات تنحني أمام الرياح. أشعر بالبرد. أنهض. أنزل الدرجات المتآكلة ببطء. لست في عجلة من أمري، ولا مكانًا بيّنًا أذهب إليه. البحر لا يبرح مكانه أبدًا، على مقربة من الدرجات، وحيث يلتقي النور بالظلام. أعدل عن الذهاب إلى شاطئ البحر، وأتجه نحو رصيف الميناء. أحصي خطواتي. واحد وأربعون، اثنان وأربعون، ثلاث وأربعون... أمشي على امتداد جدار رصيف الميناء الرمادي والمزدان بالقيشاني. أصل حتى الحاجز الحديدي للرصيف وأتوقف. أمسك بقضبان الحاجز الحديدي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رطب وبارد. أنظر إلى المقدمة المدببة للباخرة في الجهة اليمنى من الميناء. الباخرة تتأرجح في حضن الأمواج رغم ربطها بحبل غليظ إلى الرصيف. ربما هي مثلي، لا تعلم أن هذه المحطة وهذا الرصيف قد أُغلقا منذ سنوات. نفثت دخانها، وأطلقت صفارتها، وأبحرت من بعيد قادمة بأحلام كبيرة، ورست هنا. رُبطت فلم تستطع المغادرة مرة أخرى، بعد أن كان أمامها بحر شاسع، يمكنها الإبحار فيه بعيدًا، لتعثر لنفسها على موانئ أخرى جديدة تستقبلها بالترحاب. ترتفع الأمواج حول الباخرة لتهاجم الرصيف، وحين يصدّها، ترتد. بين كر وفر، تنجح الأمواج أخيرًا، بتجاوز الرصيف، فتصل مياه البحر حتى قدميّ. موجة أشدّ شراسة تتبعها فتغرق قدميّ بالماء. يلعلع الرعد في البعيد فوق بحر مرمرة. لا يكاد يخفت صداه، حتى يلعلع من جديد. أردت معرفة دلالة الرعد مثل كل الدلالات. دلالة البحر، ودلالة الظلام، ودلالة الأحرف والنوتات. دلالة الذهاب، والبقاء، والنسيان، والتذكّر. لو استطعت معرفة كل الدلالات، لاقتربت من البحر دون وجل ودون الاحتماء خلف قضبان الحاجز الحديدي، وتقدمت نحوه، ومشيت على رصيفه مثلما فعل الشابان قبل قليل، وتجولت على شاطئه دون مبالاة بعربدة أمواجه. عادت الأمواج تتسلّق الرصيف تارة وتنزل تارة حتى غدا كأنه جزءًا من البحر. محطة القطارات غدت جزءًا من البحر أيضًا. محطة أتت من أعماق سحيقة، ومن أزمنة مجهولة، ومن ماضٍ يبلغ عشرة أعوام، أو ربما مائة عام، أو ربما ألف عام. بدت كسفينة غارقة بكنوزها الدفينة خلف أبوابها المغلقة، وبدت أبراجها كأشرعة على أهبة الاستعداد للإبحار في عمق البحار. قد تأخذني إلى حيث تبحر، وقد تغير هيالا فكرها بالحلم بالسفر نحو مستقبل مجهول، وتأتي معي. هل يتدفّق زمن الناس على نحو متشابه؟ لا أدري. ربما سأعرف ذلك يومًا ما. أخرج هاتفي الجوال من جيبي. أدرك في تلك اللحظة، مدى البرودة التي ألمّت بأصابعي. أفتح الهاتف بحركات بطيئة، أدير رقم هاتف هيالا. أبدأ بالأرقام صفر، خمسة، اثنان، حين تكون

الأرقام منفردة فلا دلالة لها، وحين تجتمع معًا تتحوّل إلى دلالة تعني هيالا. هذه الدلالة، تحملها الرياح وتلمع كالبرق فوق البوسفور، لتهبط على هاتف جوال على الضفة الأخرى. يرن الهاتف الجوال في حقيبة يد، فتهتز الحقيبة على الكتف. يمتد صوت الهاتف وينتشر. أتذكّر ذلك من مشاهد رأيتها في بعض الأفلام. لا أدري كم شاهدت من الأفلام، يرن الهاتف خلالها مرات ومرات، وحين أظن أن سماعته لن تُرفع، يد تمتد في اللحظة الأخيرة وترفعها. أسمع صوتًا لاهثًا يقول، بوراتين، هل أنت بخير؟ أنا بخير يا هيالا، أجيب. أحقاً؛ أنت بخير، هل كل شيء على ما يرام؟ تكرّر. أنا بخير، لا تقلقي، أقول. شعرت بالقلق، اعتدت أن ترسل رسائل فقط، لكن حين اتصلت في هذه الساعة، ظننت أن مكروهًا قد أصابك. أنا بخير، لا تقلقي. اجتزت إسطنبول من ضفّتها الغربية إلى الشرقية. نويت ركوب القطار والذهاب بعيدًا. وجدت باب المحطة مغلقًا في وجهي. علقت هنا. ألو، بوراتين، هل أنت هناك؟ أجل أنا هنا، أقول. أقصد هل أنت في البيت؟ ثم تدرك أني خارج البيت فتضيف، أين أنت؟ أين أنا؟ قالوا إنني ولدت من البحر. أو هذا ما فهمته مما قيل لي حين فتحت عينيّ في المستشفى. أقف الآن، إلى جوار ذلكِ البحر. أنا في محطة القطار. أي محطة قطار، لم أفهم؟ محطة قطارات حيدر باشا، أقول. تصمت هيالا، تفكّر بما ستقوله. تختار سؤالًا بريئًا من بين الأسئلة الكثيرة جدًا التي تدور في رأسها. ألهذا يؤزّ هاتفك، أم ذلك صوت الأمواج والرياح؟ أجل، أقول، صوتك بعيد، كأنك لست في إسطنبول بل أبعد من ذلك. كلا يا بوراتين، تقول، تعلم أني لست بعيدة، تقول. يبدو أن في كلامنا تورية مقصودة. أنا أيضًا، لست بعيدًا، أضيف. أآتي إلى هناك وأصطحبك؟ تقول. يصل إلى مسامعي أصداء غناء وموسيقى. سكون يخيم حولي. الصوت قادم من الهاتف إذن. أتمكن من تمييز عزف لجيتار جيبسون، أحد جيتاراتي التي في البيت، لكنني لا أتعرّف على صوت المغني. هل أنت في البروفة أم في أحد البارات؟ أقول. انتهت البروفة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عدت إلى البيت. ماذا جرى؟ تقول هيالا. لا شيء، لكن حين سمعت صوت الموسيقى، ظننت أنك خارج البيت، أقول. هل أوقف المسجّلة؟ تقول. لا داعي، فالصوت بعيد ولا يؤثر على سماعي لصوتك، لكنني أتساءل من هذا المغني صاحب الصوت العميق. يغيب صوت هيالا هنيهة، ربما تتناول جرعة ماء، أو ربما تسحب نفسًا من سيجارتها. يعود صوت هيالا، وتقول، هذا صوتك يا بوراتين، كنت أستمع إلى إحدى تسجيلاتك. أتدرب على بعض الأغنيات لأدائها في نهاية الأسبوع. لا أقول شيئًا. هيالا تصمت أيضًا. تتداخل أصوات الجيتار والبيانو. الأصابع تمشط الفراغ. العرق يسيل من الأعناق ويرشح حتى الصدور. نفكر بالمعاني الخفية للأصوات. دلالات قائمة يصعب سبر أغوارها. حين تنتهي الأغنية، نعود إلى صريح كلامنا. هيالا، أقول، الجو بارد هنا، والرياح تهب بجنون. منذ متى أنت في المحطة، تقول. لا أعرف. كم الساعة الآن؟ تجاوزت منتصف الليل، تقول. مضى الوقت دون أن أشعر به، أقول. بوراتين، تقول هيالا، تتريث قليلا ثم تضيف، انتظرني، سآتي وأصطحبك، لا تبرح مكانك. أدرك في تلك اللحظة، أن صوت هيالا يشبه صوت بيسي سميث. صوت تردّدي. تعالي يا هيالا، تعالي وخذيني من هنا، أقول. بوراتين، تقول، اِنتظر في مكان مَحميّ، المطر على وشك الهطول، لا تقف تحت المطر كي لا تبتل. تغلق الهاتف. أدس يدي المتجمدة من البرد في جيبي. أتجه نحو درجات المحطة، أنظر إلى الرخام المعمّر، إلى الأبواب الخشبية، إلى الشرفات الواسعة. ما عادت أبراج المحطة تبدو. غيوم معتمة تهبط، تعانق المحطة وتأخذها بين أحضانها.

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المؤلف

وُلد برهان سونميز في هيمانة عام 1965. تخرَج في كلية الحقوق في جامعة إسطنبول. عمل في سلك المحاماة، وكتب في مجالي الثقافة والسياسة في صحف مختلفة. صدر له العديد من الروايات والمجموعات القصصية، وترجمت إلى أكثر من خمس وثلاثين لغة. ترجم ديوان شعر "الجنة والجحيم" لويليام بليك إلى اللغة التركية. نالت روايته "الأبرياء" جائزتين أدبيتين محليتين عام 2011. نالت روايته "إسطنبول إسطنبول" جائزتين دوليتين عامي 2017 و2018. صدرت روايته "المتاهة" عام 2018.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner